البداية المجهولة

لتجديد الدرس النحوي

في العصر الحديث

(القرن الثامن عشر وكتاب بحث المطالب)

تقديم الأستاذ الدكتور

حسين نصار

تأليف

د. سامي سليمان أحمد

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٣٦٢٧٧

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

رقم الايداع	٢٠٠٣/١٥٦٢٩
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 114 - 1

البداية المجهولة

لتجديد الدرس النحوي

في العصر الحديث

(القرن الثامن عشر وكتاب بحث المطالب)

تصدير

للأستاذ الدكتور حسين نصار

فسَّر ابن منظور في معجم « لسان العرب » لفظة (النحو) بالقصد والطريق ، ونحو اللغة العربية بانتحاء (قصد) سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير (التصغير) والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ؛ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، أو إن شذ (خرج) بعضهم عنها رد به إليها . ويمكن القول - للإحاطة والاختصار - بأن هدف النحو العربي معرفة الطرق التي سلكها العرب في التعبير عن أفكارهم ، وضوابط الظواهر التي غلبت على هذا التعبير .

وقد فطن المفكرون في المجتمع العربي إلى حتمية تناول النحو العربي - أو جوانب منه - منذ عهد مبكر ، لا يتعدى أواخر القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) ، إن لم نهبط إلى أواخر النصف الأول منه .

واشتغل بهذا الوليد الجديد أجيال متعاقبة من العلماء الأفذاذ ذهبوا به مذاهب متعددة ، حتى ظن الناس أن (النحو علم نضج واحترق) فلا سبيل إلى إضافة إليه .

ولكن العصور الحديثة جاءت بمناهج جديدة ، ورؤى مبتدعة للبحث ، ووسائل لم تكن عند القدامى . فابتدعت تاريخ النحو لا النحاة ، والنحو المقارن بين اللغات التي تعود إلى أسرة واحدة مثل الساميات ، غير أن بعض

الدارسين تعداها أحيانا إلى اللغات من الأسر المختلفة وانطلقت تدرس أقاليم ، وعصور ، ولهجات حرمها القدماء

وجاء وقت أحس مدرسو اللغة العربية أن التواصل بينهم وبين تلاميذهم يكاد ينقطع إن لم يكن قد انقطع فعلا ؛ وأن السبب الرئيسي في هذه القطيعة النحو أو طريقة تعليمه .

فقد كانوا يعلمونه كما كان أسلافهم يعلمونه ، بل وفي كتب أسلافهم أو كتب تسير على خطى هؤلاء الأسلاف . وغفل هؤلاء المعلمون عن أنهم يعلمون تلاميذ غير الذين كان أسلافهم يعلمونهم ، ويعيشون حياة غير حياة الأسلاف ، ويتلقون علوما غير ما كانوا يتلقون ، وبطرق جديدة تحبب الدراسة ، وتغرى بالمتابعة .

وقد فطن الواعون من المعلمين والمفكرين ، فنادوا بحتمية تغيير طرق تعليم النحو العربي ، وابتداع طرق جديدة ، تشوق الطالب ، وتصل به إلى ما يبغى من قدرة على التعبير السوى عن أفكاره كلاما منطوقا أو مدونا ، تلك القدرة التي عجزت الطرق التقليدية عن الوفاء بها .

وما بين يدى القارىء الآن بحث عن أحد هؤلاء المجددين . فقد وقع الدكتور سامي سليمان أحمد ، المدرس بقسم اللغة العربية في كلية الآداب من جامعة القاهرة على كتاب « بحث المطالب » للمطران جبرائيل ابن فرحات الماروني ، الحصروني اللبناني الأصل ، الحلبي المولد والوفاة (١٠٨١ - ١١٤٥ / ١٦٧٠ - ١٧٣٢) ، والذى تسمى بجرمانوس عندما ترهب في ١٦٩٣ . فوجد فيه ما يستحق الدرس المتأني .

وجد المؤلف يؤلفه للتلاميذ ، ويسعى إلى تدقيق التعريفات والمصطلحات ، وتعديل بعض المفاهيم التى استند إليها النحاة القدماء تعديلا جزئيا ، والاختيار من اجتهاداتهم ، وإعادة تنسيق أبواب النحو ، ويتوخى الإيجاز والتنظيم الصارم في العرض ويعدد منابع الشواهد والأمثلة لتشمل الثقافة المسيحية مع الإسلامية .

وإذ كان د . سامي سليمان - محقق الكتاب ودارسه - أحد شباب القسم ، من ذوى الوعى والجد والطموح ، الذين يتحلون بالتفكير المنطقى الرزين ، فقد قرأ الكتاب كله قراءة متأنية للفحص والغوص ، لاستخلاص كل الظواهر التي تلوح في الكتاب ، وتغلب أحيانا عليه ، وتناول كل واحدة من هذه الظواهر بالتأمل والعلاج . فعل ذلك ، على هدى من الموجز من التراث القديم ، ومن مؤلفات القريبين من عصره من الشاميين والمستشرقين ، ومن كتابات المصريين الذين يعدهم بعض العلماء أوائل مجددى النحو . ولذلك نجده يقارن فى كل موضع بين صاحب الكتاب ورفاعة الطهطاوى ود . شوقى ضيف ومحمد عيد وغيرهم . فيلغ إلى أن يخالف - عن حق - شيوخ العلم ، ويضع كتاب « بحث المطالب » موضعه الجدير به فى صدر المجددين .

حسين نصار

مقدمة

كان الرأى المتواتر بين دارسى الثقافة العربية يؤكد أن بداية العصر الحديث فيها تعود إلى بداية القرن التاسع عشر ، ويؤسس ذلك على ملاحظة تأثيرات اتصال العرب بأوروبا واحتكاكهم بالثقافة الأوروبية . وفى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين بدأ يبزغ رأى آخر يرد بداية الثقافة العربية الحديثة إلى فترة القرن الثامن عشر ، وقد تبلور هذا الرأى لدى بعض مؤرخى العصر الحديث والثقافة العربية المرتبطة به ، ولعل أشهر من تبنى هذا الرأى وسعى إلى التدليل عليه المستشرق الأمريكى « بيترجران » فى دراسته « الجذور الإسلامية للرأسمالية - مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠ » .

ومن اللافت للانتباه أن بعض مؤرخى الأدب العربى الحديث والثقافة العربية قد سبقوا « جران » فى القول بأهمية دور القرن الثامن عشر فى تشكيل البداية الأولى للثقافة العربية الحديثة ، ومنهم جرجى زيدان ومارون عبود . فقد أبرز زيدان ، قبل « جران » بأكثر من ستة عقود ، فى الجزء الرابع من كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وجهة نظره التى ترى أن البيئة الشامية قد عرفت منذ أواخر القرن السابع عشر ، بدايات التجديد فى الثقافة العربية فى الأدب واللغة والتاريخ ، والتى تمثلت فى كتابات عدد من رجال الدين المسيحيين ، وهم : البطريرك مكاريوس الحلبى الأرثوذكسى ، والمطران جرمانوس فرحات المارونى الحلبى (١٦٧٠ - ١٧٣٢) ، والشماس عبد الله زاخر الكاثوليكى (ت ١٧٤٨) .

وقد تكررت الوجهة ذاتها لدى مارون عبود في عدد من كتاباته . ومنها كتابه « رواد النهضة الحديثة » .

وتتصل هذه الدراسة عن « البداية المجهولة لتجديد الدرس النحوى » بكتاب من الكتب التي قدمها واحد من المسيحيين الشوام في القرن الثامن عشر ، وهو كتاب « بحث المطالب في علم العربية » الذى ألفه المطران جرمانوس فرحات الماروني الحلبي عام ١٧٠٥ ، ثم اختصره عام ١٧٠٧ . فهي تتناول إذن ، كتابا من القرن الثامن عشر الذي يمثل ، في بيئة الشام بصفة خاصة ، مرحلة بداية العصر الحديث في الثقافة العربية . وتمثل كتابات جرمانوس فرحات في الشعر واللغة والنحو نماذج لظواهر التجديد في بيئة الشام في القرن الثامن عشر ، وهذا ما تكشف عنه مقارنة تلك الكتابات بكل من الكتابات السابقة عليها واللاحقة بها . وهذه الدراسة التي تقدمها للقارئ ليست إلا واحدة من عدة دراسات نأمل في استكمالها لإعادة قراءة البدايات الحقيقية المجهولة في عدد من مجالات الثقافة العربية الحديثة ، ولا سيما مجالات الأدب والنقد واللغة .

ومن حق القارئ أن نصارحه ، بداية ، بالمفارقة التي تنطوي عليها هذه الدراسة ؛ إذ إن مجالها هو مجال الدرس النحوى الذى يعد أكثر مجالات الثقافة العربية الحديثة اتصالا بالتراث العربى الوسيط ، على حين أنها – من حيث منهجها – تسعى إلى بلورة منهجية معاصرة تفيد من إسهامات بعض الاتجاهات النقدية المعاصرة في تحليل النصوص الإبداعية والنقدية ؛ فتفيد من

السيميولوجية في تحليل الخطاب ونقد النقد عددا من المنطلقات النظرية والأدوات التحليلية والإجراءات المنهجية وتضيف إليها بعض الأدوات التحليلية التي تشيع لدى بعض اتجاهات البحث اللغوي في دراسة النصوص - على اختلاف أنواعها - كالإحصاء الذي يعد أداة تتيح للدارس الرصد المنضبط للظواهر التي يدرسها ، وتمنحه مجموعة من النتائج المضبوطة التي يسعى إلى تفسيرها واستنباط الدلالات التي تنطوي عليها .

وقد اعتمدت هذه المنهجية أيضا على المقارنة بوصفها إجراءً منهجيا أساسياً يسهم في الكشف عن جوانب التشابه والاختلاف بين كتاب « بحث المطالب » من ناحية ، وكتاب رفاعة الطهطاوي « التحفة المكتبية » الذي عده كثير من الدارسين أولى محاولات تجديد الدرس النحوي في العصر الحديث ، وعدد ضخم من كتب التراث النحوي العربي ، لا سيما الكتب المختصرة أو الموجزة التي تصنفها الدراسات اللغوية الحديثة في إطار « الكتب التعليمية في النحو العربي » من ناحية ثانية .

وإذا كانت هذه الدراسة قد اتخذت من كتاب « بحث المطالب في علم العربية » مادة لتحليلها وفق المنهجية التي سعت إلى بلورتها ، فإن آليات هذه الدراسة كانت تنطلق دائما من استنباط العلامات التي يطرحها هذا الكتاب ومقارنتها بالعلامات الدالة في كتاب « التحفة المكتبية » وفي كتب التراث النحوي العربي . وقد كان التحليل يمضي ، دائما ، وفق منظور يسعى إلى اكتشاف هذه العلامات بوصفها دوال ، ثم البحث عن الدلالات المختلفة التي

تحملها هذه العلامات ، واستنباط الوظائف المتعددة التي تؤديها عبر تواليها أفقيا ورأسيا في « بحث المطالب » .

وقد أفضت هذه الآليات في القراءة إلى متابعة العلامات التي استنبطناها من الكتاب ، وتأثيرها في عدد من الظواهر التي أسميناها ظواهر التجديد في الدرس النحوي في كتاب « بحث المطالب » وهذه الظواهر هي :

نمط التأليف الذي يتشكل من ثلاث علامات فرعية ، هي : البنية الكبرى ، والبنية الصغرى ، وتنظيم بعض أبواب النحو وفق منطق مبتكر يختلف عما ساد في كثير من كتب التراث النحوي . وضبط عدد من مصطلحات الدرس النحوي والتدقيق في صياغتها وإبراز دور الدلالة فيها . ثم الإيجاز في تقديم المادة النحوية والصرفية ، وهو يمثل أداة ضابطة جعلت المؤلف يحدد عددا من العناصر الأساسية في كل موضوع نحوي أو صرفي يحرص علي أن يقدمها للمتلقي ، علي حين أنه كان يستبعد عددا من العناصر الأخرى التي يراها غير ذات فائدة للمتلقي .

وقد تفاعلت الظاهرتان السابقتان (الضبط المصطلحي والإيجاز) فولدتا معا ظاهرة مركبة أسميناها « بنية تنظيم الموضوع النحوي تنظيما وافيا ودالا في آن » ، مما جعل من هذه الظاهرة الرابعة علامة من أبرز العلامات الفارقة بين كتاب « بحث المطالب » وكتب المختصرات في التراث النحوي العربي .

وقد تمثلت الظاهرة الخامسة من ظواهر تجديد الدرس النحوي في « بحث

المطالب » في التمثيل للظواهر والقواعد الصرفية والنحوية بأمثلة متواترة في كتب النحاة العرب القروسطيين ، وأخرى مستمدة من الثقافة المسيحية .

واعتمد درس تلك الظاهرة الأخيرة على الإحصاء والمقارنة اللذين أفضيا إلى نتيجة ترى أن « بحث المطالب » - سواء في نسخه المخطوطة ، أو في طبعاته الثلاث عشرة في القرن التاسع عشر - كان يُتلَقى في البيئات المسيحية وغير المسيحية في بلاد الشام طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وإذا كانت كل الظواهر الخمس السابقة قد درست عبر مقارنة دائمة بين « بحث المطالب » من جهة ، و « التحفة المكتبية » من جهة ثانية ، وكتب المختصرات الصرفية والنحوية في التراث العربي ، من جهة ثالثة ، وبعض محاولات تجديد النحو العربي في القرن العشرين من جهة رابعة - فلعلها قد دللت - عند تناول كل ظاهرة وفي نهاية الدرس - على أن « بحث المطالب » يمثل البداية المجهولة لتجديد الدرس النحوي في العصر الحديث .

وقد اقتضى تأصيل نموذج تجديد الدرس النحوي الذي قدمه « بحث المطالب » مقارنة هذا الكتاب بكتب المستشرقين السابقين عليه والمعاصرين له في مجال تعليم النحو العربي ، وكتب الشوام الذين كانوا يعلمون العربية في الدوائر الاستشراقية منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وقد أفضت المقارنة إلى إبراز أصالة نمط التأليف الذي قدمه « بحث المطالب » .

وانتهت الدراسة إلى أكثر من فرض ، منها فرض يطرح منظورا جديدا لإعادة قراءة نمط التأليف أو البنية الكبرى في مختلف كتابات مرحلة الإحياء

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر د . علوم النعة والنحو والبلاغة والنقد لاكتشاف الآليات والطرائق التى سعى بها أصحاب هذه الكتابات إلى تقديم كتب التراث العربى والتعديل فيها استجابة للمتطلبات الجديدة التى فرضها الواقع الحديث .

إن المأمول من هذه الدراسة أن تدفع الدارسين والباحثين إلى إعادة تأمل مرحلة بداية العصر الحديث فى الثقافة العربية ، ومحاورة الفرضيات التى سعت هذه الدراسة إلى تأصيلها ، مما يفضى إلى تعديلها أو تطويرها أو حتى رفضها سعيا إلى فرضيات أخرى أكثر قدرة على اكتشاف بعض جوانب الهوية الحقيقية للثقافة العربية ، ولا سيما محاولات تجديدها وتطويرها .

(١) مدخل :

مثَّل تجديد الدرس النحوى جانبا من جوانب تجديد الثقافة العربية الحديثة التى سعى كثير من منتجيها إلى تطويرها لتصبح أكثر قدرة على الاستجابة للحاجات الفكرية والجمالية والعملية التى ولدها تطور المجتمع العربى الحديث . وقد نال ما قدمه بعض رواد النهضة العربية فى مجال تجديد الدرس النحوى اهتمام عدد من دارسى مسائل التجديد اللغوى والنحوى من الدارسين المحدثين ، وقد استقرت لديهم وجهة نظر ثابتة تقرن تجديد الدرس النحوى العربى الحديث برفاعة الطهطاوى الذى أصدر عام ١٨٦٨ كتابه « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » ، وتجلت هذه الوجهة لدى كل من محمود فهمى حجازى وشوقى ضيف والبدراوى زهران ، فحجازى قرر ارتباط (حركة التجديد فى عرض النحو العربى فى شكل حديث بكتاب « التحفة المكتبة لتقريب اللغة العربية » ، وقد ألف رفاعة الطهطاوى هذا الكتاب على نمط مؤلفات الفرنسيين فى النحو . لقد أعجب الطهطاوى فى أثناء إقامته فى فرنسا بمنهج الفرنسيين فى عرض النحو ، فخرج على طريقة معاصريه فى

الشروح والمتون والتعليقات ، وألف كتابا سهل العرض ، ليس له متن أو شرح ، بل له نص واحد يقرأ فيفهم ، وكان الطهطاوى أول من استخدم الجداول الإيضاحية فى كتب النحو العربى ، وبذلك بدأت الكتب التعليمية الحديثة فى النحو العربى » [1] .

وقد جعل شوقى ضيف من كتاب « التحفة المكتبية » بداية المحاولات الحديثة فى تيسير النحو التعليمى ، وربط بين هذا الكتاب وهدف الطهطاوى فى تعليم الناشئة النحو ، فبعد أن نظم الطهطاوى أرجوزة موجزة سماها « جمال الأجرومية » استغناء فيها (بمتون النحو خاصة بمتن الأجرومية (...) « أخذ » فى التحفة يقتصر على أبواب النحو الأساسية منحيا عنها الأبواب الفرعية ، ورأى أن يدخل على الكتاب فكرة الجداول المعروفة فى كتب النحو الخاصة باللغة الفرنسية . واتسع فيها حتى ليكاد يكون لكل باب من أبواب النحو جدول خاص به يعرض فيه صيغه المختلفة) [2] .

وأما البدراوى زهران فقد انطلق فى سعيه إلى الكشف عن أهمية كتاب التحفة المكتبية من إبراز أثره فى الأجيال التالية للطهطاوى فوصفه بأنه

---

(1) محمود فهمى حجازى : علم اللغة العربية : مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية ، توزيع دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٩٤ ، وتشير إلى أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد صدرت عام ١٩٧٣ ، وانظر أيضا : محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى - مع النص الكامل لكتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ١٣٤ .

(2) شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا ، مع نهج تجديده ، دار المعارف ، ١٩٨٦ ، ص ٢٦ .

« احْتُذِى منهجه وأمكن الاستفادة منه (...) ؛ فقد قدم رفاعة فيه للثقافة اللغوية لأول مرة عملا جمع إلى أصالته الاستفادة من مناهج الغربيين في وضوح شخصية تبرز ملامحها في تحديد الهدف وتيسير سبل الوصول إليه في وثبة جريئة بعيدة المدى ، تعد بمثابة انطلاقة مكافئة للجمود الذى خلفته قرون ران فيها على العقول ما ران ، وقد كان عمل رفاعة هذا بداية أيقظت عقولا وطورت فكرا ، وأخذ مؤلفون من بعده يؤلفون على غراره في النحو المدرسى » [٣] .

وإذا كانت آراء حجازى وضيف وزهران تجتمع في قرنها تجديد الدرس النحوى العربى الحديث بكتاب « التحفة المكتبية » للطهطاوى فإنها تعلل ذلك ببروز عدد من الظواهر الدالة على طبيعة ذلك التجديد ، والتى تتحدد في تقديم الطهطاوى طريقة جديدة في التأليف النحوى في إطار تلبية الاحتياجات التعليمية وتقديمه نصا متكاملا ليس له شرح أو حواش ، واستخدام الجداول الإيضاحية في تقديم الموضوعات النحوية بطريقة منظمة ومبتكرة ، ويبدو واضحا أن تجديد الطهطاوى الدرس النحوى العربى الحديث يعود – فيما يرون – إلى تأثر الطهطاوى بالثقافة الأوروبية / الفرنسية .

---

(٣) البدراوى زهران : رفاعة الطهطاوى وتيسير نحو العربية في كتابه التحفة المكتبية ، ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة ، دار المعارف ١٩٨٨ ، ص ٣٨٦ ، ونشير إلى أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد صدرت عن دار المعارف ١٩٨٣ تحت عنوان « رفاعة الطهطاوى ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة » مع النص الكامل للتحفة المكتبية ، ولا تختلف الثانية عنها سوى في العنوان ، ويبدو أن تغيير العنوان مرتبط في جانب من جوانبه بنشر شوقى ضيف كتابيه « تجديد النحو » عام ١٩٨٢ ، و « تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا » عام ١٩٨٦ .

وتنطلق هذه الدراسة من رأى مختلف تماما قوامه أن البداية الأولى والحقيقية لتجديد الدرس النحوى العربى فى إطاره التعليمى فى العصر الحديث قد بزغت قبل الطهطاوى بأكثر من قرن ونصف القرن ، أو بمائة وواحد وستين عاما على وجه التحديد ، فهذه البداية لا تعود إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٦٨) بل ترتد إلى العقد الأول من القرن الثامن عشر ، حين قدم المطران جبرائيل / جرمانوس فرحات المارونى الحلبى (١٦٧٠ - ١٧٣٢) كتابه « بحث المطالب » .

ويتطلب تعليل هذا الرأى وتفصيله قراءة كتاب « بحث المطالب » قراءة ذات مقارنة ثنائية بينه وبين كتب المختصرات النحوية والصرفية فى التراث العربى من ناحية ، وكتاب « التحفة المكتبية » للطهطاوى من ناحية ثانية .

وتؤسس هذه القراءة لنفسها عددا من المقدمات الأساسية التى تتصل ببيان مواقف عدد من الدارسين العرب المحدثين والمستشرقين من هذا الكتاب ، والتعريف البالغ الإيجاز بالمؤلف الذى توشك جهوده التجديدية فى الأدب واللغة العربية أن تكون مجهولة لدى الغالبية العظمى من مؤرخى الثقافة العربية الحديثة ، ووصف الكتاب وطبعاته ، وتحديد مفهوم تجديد الدرس النحوى .

وليست تلك المقدمات السابقة إلا أساسا لتحديد الفرضية الأساسية التى يمكن أن يقرأ هذا الكتاب فى ضوئها لاستكشاف ظواهر تجديد

الدرس النحوى فيه .

(٢ / ١) مواقف الدارسين من كتاب « بحث المطالب »

لعل أول ما يلفت انتباه الدارس / القارئ أن عددا قليلا من دارسي الأدب العربي الحديث من العرب ومن المستشرقين قد توقفوا بإيجاز أمام جهود جرمانوس فرحات ، ولكنهم اكتفوا دائما بالإشارة إلى كتابه « بحث المطالب » ووصفوه دائما أوصافا موجزة لا تكشف على الإطلاق عن ماهيته ، ولا تدفع القارئ/ الدارس إلى مجرد التفكير فيما يمكن أن ينطوي عليه هذا الكتاب من تجديد ؛ فقد اكتفى جورجي زيدان بالإشارة إلى أن هذا الكتاب طبع مرارا (٤) ، على حين أسند مارون عبود لجرمانوس فرحات « فضل التأليف في النحو ، فهو أول نصراني ألف فيه ، بعدما أخذ هذا العلم عن الشيخ سليمان النحوى المسلم في حلب » (٥) . ورأى أمين ألبرت الريحاني ، في بداية العقد الثامن من القرن العشرين ، أن فرحات بوصفه لغويا قد تفهم « الحاجة الماسة لوضع كتب في قواعد اللغة العربية تسهل حفظ هذه اللغة وإتقانها ، فألف في الصرف والنحو والبيان كتبا استمرت قيد الاستعمال والتداول بين المسيحيين حتى زمن قريب » (٦) .

---

(٤) انظر : جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الرابع ، دار الهلال ، بدون تاريخ ، ص ١٠ .

(٥) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٣٥

(٦) أمين ألبرت الريحاني : مدار الكلمة : دراسات نقدية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١١١ .

وقد توقف عدد من المستشرقين أمام كتابات جرمانوس فرحات ليشيروا أحيانا إلى أهمية بعضها في إطار الأدب المسيحي العربي ، أو ليومئوا أحيانا إلى انتشار عدد من كتبه في البيئات المسيحية العربية ، فالمستشرق الألماني هارتمان "Martin Hartmann" أشار في العقد الأخير من القرن التاسع عشر إلى أن فرحات هو النموذج الأكثر سطوعا بين المؤلفين المسيحيين العرب في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، وأقر أن أشهر كتاباته هو كتابه في النحو « بحث المطالب » [٧] . على حين توقف المستشرق الألماني جراف "Georg Graf" ، قرب نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، في كتابه « تاريخ الأدب المسيحي العربي Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur أمام كتابات جرمانوس الدينية والتاريخية والأدبية واللغوية ، ثم انتهى إلى القول إن (جرمانوس فرحات هو مؤلف أكثر كتب نحو اللغة العربية انتشارا في مدارس المسيحيين ، ولكنه لم يشق طرقا جديدة لعلم اللغة في مؤلفاته ، فقد التزم دائما بالمنهج التقليدى للمؤلفين المسلمين في النحو ، وينحصر تجديده في تقديمه أمثلة للقواعد النحوية من الترجمات العربية للإنجيل) [٨] .

أما المستشرق الإنجليزى ستاركى " Paul Starkey " فقد توقف في نهاية العقد الأخير من القرن العشرين أمام فرحات ليصفه بأنه كان (بشيرا بنهضة القرن التاسع عشر ، وتبدو أهميته بوضوح في مجال تعليم اللغة

(٧) Hartmann, Martin : Philologie , Deutsche Literatu r Zeitung, N.5 February 1896. P. 136 .

(٨) Graf,Georg : Geschichte der Chirstlichen Arabischen literatur, Band 3, Citta del vaticana, Biblioteca Apostolica vaticana, 1977, P. 416 .

العربية بتقديمه كتبا تعليمية فى مجالات المعاجم ، والنحو ، والبلاغة ، والتى لقيت انتشارا واسعا) [٩] .

ومن الواضح أن المستشرقين الذين توقفوا أمام كتابات جرمانوس فرحات قد لفتهم انتشار كتبه التعليمية فى أوساط التعليم المسيحى ، وإذا كان جراف قد اختلف عن الآخرين فى وقفته المطولة – مقارنة بهما – أمام كتاب « بحث المطالب » فإنه اكتفى بحصر التجديد فيه فى استمداد فرحات أمثلة القواعد النحوية من الترجمات العربية للإنجيل ، وسنتوقف أمام هذا الرأى فى موضع تال لمناقشته وتحديد هويته الحقيقية مكتفين هنا بالإشارة إلى أن ظاهرة استشهاد جرمانوس بأمثلة من الترجمات العربية للإنجيل ليست إلا ظاهرة واحدة فقط من ظواهر تجديد الدرس النحوى التى يمكن استنباطها من القراءة العميقة للكتاب .

(٣ / ١) التعريف بجرمانوس فرحات وجهوده التجديدية

يتصل المدخل الثانى بالتعريف الموجز بالمؤلف ، فهو جبرائيل بن فرحات مطر المارونى ، المولود فى حلب عام ١٦٧٠ على ما يتفق من ترجموا له فيما عدا سعيد الشرتونى الذى أشار فى مقدمته لديوان فرحات ، إلى أنه ولد عام ١٦٢٠ [١٠]، ويبدو رأيه مجانبا الصواب ، لمخالفته الرأى السائد بين من

(٩) Starkey , Pual and Meisami , Julie Scott (ed.) Encyclopedia of Arabic literature, V. 1, Routledge, London and New York, 1998, P221 .

(١٠) انظر : ديوان جرمانوس فرحات : الطبعة الثانية ، تعليق وتصحيح سعيد الخورى الشرتونى ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٤ ، ص ٩ من ملخص ترجمة الناظم ، وقد يبدو أن هذا التاريخ خطأ مطبعى لأن سياق أحداث حياة جرمانوس فى هذه الترجمة تبين أنه ولد عام ١٦٧٠ .

ترجموا لفرحات ، لا سيما أن الشرتوني لم يعلل رأيه ذاك . وتعود الأصول الأولى لفرحات إلي حصرون بلبنان ، وقد تعلم بالمدرسة المارونية بحلب ، ودرس علم اللاهوت ، واتصل بالثقافة العربية الوسيطة اتصالا عميقا تكشف عنه مؤلفاته الأدبية واللغوية ، وأتقن عدة لغات هي العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية ، ودخل سلك الرهبنة سنة ١٦٩٣ ، وحمل اسم جرمانوس ، وتنقل في أديرة كثيرة في سوريا ولبنان ، إلي أن انتخب مطرانا على حلب سنة ١٧٢٥ ، وذهب في رحلات متعددة إلى عدد من دول أوروبا ولا سيما إيطاليا وأسبانيا ، وتوفي بحلب عام ١٧٣٢ (١١) .

---

(١١) انظر المصادر التالية التي قدمت ترجمة جرمانوس فرحات :

- جرجس منش الماروني الحلبي : المستطرفات المستظرفات في حياة السيد جرمانوس فرحات ، المشرق ، السنة الرابعة ، العدد الثاني ١٥ كانون الثاني ١٩٠٤ ، ص ٤٩ - ٥٦ .
- جرجس منش الماروني الحلبي : تركة السيد جرمانوس فرحات ، المشرق ، السنة السابعة ، العدد ٨٧ ، ١٥ أبريل ١٩٠٤ .
- ديوان جرمانوس فرحات ، مرجع سابق ، ترجمة الناظم ، ص - ص ٩ - ١٢ .
- جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع ، مرجع سابق ، ص ٩ - ١٠ .
- مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، مرجع سابق ، ص - ص ٣٤ - ٣٩ .
- جرمانوس فرحات : إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب ، تصحيح رشيد الدحداح ، مطبعة باراس وسافورنين ، مرسيلية ١٨٤٩ ، ص ٢١ - ٢٤ حيث قدم الدحداح تعريفا بجرمانوس تحت عنوان « مطلب في تلخيص حياة المؤلف » .
- بطرس البستاني : دائرة المعارف ، المجلد السادس ، دار المعرفة ، بيروت ١٨٧٦ ، ص - ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .
- إدورد فنديك : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية ، صححه وزاد عليه بعض الكلام السيد / محمد على البيلاوى ، طبع بمطبعة التأليف (الهلال) بالفجالة سنة ١٨٩٦ ، ص ٣٠٩ . ونشير إلى أن فنديك هو الوحيد فيما نعلم الذى انفرد بالقول أن جرمانوس فرحات قد توفي عام ١٨٢٦ .
- يوسف إلياس سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة : الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص - ص ١٤٤١ - ١٤٤٢ .
- خير الدين الزركلي : الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٠ ، ص١٠٩ - ١١٠
- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، القسم الثامن : العصر العثماني ، ترجمة محمود فهمي حجازى وعمر صابر عبد الجليل ، إشراف محمود فهمي حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص - ص ٣٦ - ٣٧ .

وضع جرمانوس فرحات مؤلفات كثيرة في علوم اللاهوت / العلوم الدينية ، وما تزال الغالبية العظمى منها مخطوطة [١٢] . وأما إسهاماته الأدبية واللغوية فتتمثل فى ديوانه الذى طبع مرتين فى القرن التاسع عشر ، ويبرز فيه علاقته العميقة بالتراث الشعرى العربى الوسيط ، حيث لجأ إلى تسميط عدد من قصائد المعرى وابن سينا والسهروردى ومقطوعاتهم ، وألف بعض المقطوعات التى يعارض بها بعض مقطوعات المعرى ، كما كتب عددا من المثلثات والمخمسات [١٣] ، ويمكن أن يوضع شعره فى إطار المرحلة الأولى من مراحل الإحياء الأدبى فى العصر الحديث .

ويمثل معجمه « إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » نموذجا للدراسة المعجمية الحديثة المبكرة في القرن الثامن عشر ، أى فى مرحلة البداية المجهولة لثقافة العصر الحديث ، وهو اختصار وإضافة إلى القاموس المحيط ، وقد وصفه بعض الدارسين بأنه بداية الحركة المعجمية الحديثة في لبنان [١٤] .

---

(١٢) انظر مقال جرجس منش المارونى الحلبى : تركة السيد جرمانوس فرحات ، سبق ذكره ، حيث يرصد كتابات فرحات الدينية ، وانظر أيضا : كوركيس عواد : الأصول العربية للدراسات السريانية ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٩٨٩ ، صفحات ٨٤ - ٩٠ ، ١٠٥ - ٢٢٢ ، وانظر أيضا : بطرس حداد وجاك اسحاق : المخطوطات السريانية والعربية فى خزانة الرهبانية الكلدانية فى بغداد ، الجزء الثانى : المخطوطات العربية ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، ١٩٨٨ ، ص - ص ٢٣ - ٤٢ .

(١٣) انظر ديوان جرمانوس فرحات ، مرجع سابق ، ص ٢٧٤ - ٢٧٨ ، ٣١٠ - ٣١١ ، ٤٣٩ ، ٤٩٦ - ٤٩٧ وغيرها من الصفحات .

(١٤) انظر حسين نصار : المعجم العربى : نشأته وتطوره ، الطبعة الرابعة ، دار مصر للطباعة ١٩٨٨ ، الجزء الثانى ، ص ٥٠٧ حيث يقول المؤلف فى نهاية دراسته لهذا المعجم (أظن أن هذا الكتاب أثر فى المدرسة الحديثة التى أرادت أن تؤلف معجمات تلائم هذا العصر وخاصة مدرسة اليسوعيين فاتبعوه فى كثير من خطوات منهجه) .
وانظر أيضا : محمد على الزركان : الجوانب اللغوية عند أحمد فارس الشدياق ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، سوريا ١٩٨٨ ، ص ١١٢ .

ولجرمانوس فرحات كتب أخرى في اللغة والنحو منها « الأجوبة الجلية في الأصول النحوية » ، الذى ظل مخطوطا إلى قرب نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، حيث صدرت منه عدة طبعات في أعوام ١٨٣٢ ، ١٨٤١ ، ١٨٥٧ ، ١٨٨٦ ، ١٨٩٩ . ويمثل هذا الكتاب نمطا من أنماط التأليف الحديث في مجال النحو التعليمي ، ويمكن تقسيمه إلى قسمين ، نظرى وتطبيقى ، ويبدأ القسم الأول بمقدمة عن معنى الكلام وأقسامه ، تليها سبعة أبواب يعالج أولها الإعراب ، ويتوقف ثانيها عند علامات الإعراب ، ولذا ينقسم إلى خمسة فصول ، على حين يختص الباب الثالث بالأفعال ، وليس فيه فصول ، أما الباب الرابع فيتناول مرفوعات الأسماء ، وينقسم إلى أربعة فصول تعالج الموضوعات التالية : الفاعل ، المفعول الذى لم يسم فاعله ، المبتدأ والخبر ، ثم العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر . ويتناول الباب الخامس التوابع ، وينقسم إلى ثلاثة فصول يتناول فيها جرمانوس العطف والتوكيد ثم البدل ، على حين أن الباب السادس هو أطول فصول هذا الكتاب الموجز ، ويتناول فيه جرمانوس فرحات الأسماء المنصوبة ، وقد قسمه إلى عشرة فصول تمضى على النحو التالى : المفعول المطلق ، المفعول به ، المفعول فيه ، المفعول له ، المفعول معه ، الاستثناء ، الحال ، التمييز ، لا النافية للجنس ثم المنادى . أما الباب السابع فيتناول فيه المخفوضات .

وقد جعل جرمانوس القسم الثانى من كتابه قسما تطبيقيا قدم فيه أمثلة معربة تحت عنوان « إعراب أمثلة الأجرومية » .

ويتبدى تجديد نمط التأليف في « الأجوبة الجلية في الأصول النحوية » في بناء قسمه الأول على تقنية السؤال والجواب ، حيث يطرح سؤال عن القاعدة الأساسية المراد شرحها ، وتقدم إجابة موجزة تعرض القاعدة النحوية في جملة مركزة ، وتقرن بها أمثلة شارحة للقاعدة وحالاتها أو أنماطها المختلفة ، ويمكن التمثيل لهذه التقنية بمعالجة المؤلف للمفعول المطلق التي تمضي على النحو التالي :

(س : ما هو المفعول المطلق ؟

ج : المفعول المطلق هو المصدر المسلط عليه عامل إما من لفظه ومعناه أو من معناه فقط . مثال الأول : ضربته ضربا ، ومثال الثاني : جلست قعودا – فضربا مصدر منصوب مسلط عليه عامل موافق له في لفظه ومعناه وهو « ضرب » ، وقعودا مصدر منصوب مسلط عليه عامل من معناه لا من لفظه وهو « جلس » .

س : إلى كم نوع ينقسم المفعول المطلق ؟

ج : إلى نوعين : مؤكد ومبين ، فالمؤكد ما ساوى معناه معنى فعله كقولك (ضربت ضربا ، والمبين ما زاد على فعله بإفادة عدد ، كضربته ضربتين ، أو نوع كضربته ضرب المؤدب) (١٥) .

وقد ألحق جرمانوس بمعجمه « إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » فصلا تناول فيه معاني علامات الإعراب حيث عرض فيه الأدوات التي

(١٥) جرمانوس فرحات : الأجوبة الجلية في الأصول النحوية ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الآباء الفرنسيسكانيين ، أورشليم ١٨٨٦ ، ص ٣٨ – ٣٩ .

تدخل على الجملة وتؤثر في إعرابها ودلالتها ، وقد رتب هذه الأدوات ترتيبا هجائيا .

ويبدو أن هذا الفصل كان كتابا مستقلا بدليل أن بروكلمان يذكر أن له مخطوطتين : إحداهما في ميونيخ والأخرى في الفاتيكان ، وكل منهما تحمل عنوان « الفصل المعقود في عوامل الإعراب » [١٦] ، ولعل ذلك يشير إلى أن جرمانوس قد ألف « عوامل الإعراب » كتاباً مستقلا ثم ضمه إلى معجمه « إحكام باب الإعراب عند لغة الأعراب » الذى انتهى من تأليفه عام ١٧١٨ .

أما كتابه « بحث المطالب » فقد ألفه سنة ١٧٠٥ ، وكان يستخدم في البداية في تدريس النحو العربي في أديرة الآباء اليسوعيين ومدارسهم ، فأدرك جرمانوس ما فيه من تطويل في عرض موضوعات النحو والصرف فاختصره عام ١٧٠٧ ، بينما يرى جراف أن اختصاره كان في يناير ١٧٠٨ [١٧] ، وهذا المختصر توجد منه نسخ خطية كثيرة منها تسع وعشرون نسخة في مكتبات حلب ، وخمس نسخ في دير الشرفة ونسخة في دير المخلص ، وثلاث نسخ في المكتبة الشرقية ببيروت ، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس وتترواح تواريخ عدد من هذه النسخ بين عامي ١٧٠٧ و ١٨١٦ [١٨] .

---

(١٦) انظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، القسم الثامن : العصر العثماني ، مرجع سابق ، ص٣٧

(١٧) انظر : مقال جرجس منش الماروني الحلبي : مطالب في بحث المطالب ، مجلة المشرق ، السنة الثالثة ، العدد ٢٣ ، يناير ١٩٠٠ ، ص ١٠٧٨ ، ويقع المقال ص١٠٧٧ - ١٠٨٣ ، وانظر رأى « جراف » في كتابه : Geschichte der Chrislichen Arabischen literature, P 417 .

(١٨) حول هذه النسخ الخطية ، انظر كوركيس عواد : الأصول العربية للدراسات السريانية ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩ ، ص ٧٨ .

وقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في المطبعة الأمريكية بمالطة عام ١٨٣٦ ، والمرجح أن أحمد فارس الشدياق (١٨٠١ - ١٨٨٧) هو الذى تولى الإشراف على طباعته ، وأضاف إليه نحو خمسين ملاحظة . وهناك من يرى أن الشدياق قد اختصر هذا الكتاب ونشره تحت عنوان « الأجوبة الجلية في الأصول النحوية » وطبعه بمالطة عام ١٨٤١ [١٩] .

وقد توالت طبعات الكتاب في القرن التاسع عشر ، ويمكن رصد هذه الطبعات وما أدخل عليها الطابعون من تغييرات مختلفة .

وأولى هذه الطبعات هي طبعة بطرس البستاني عام ١٨٤٥ والتي أعطاها عنوان « مصباح الطالب فى بحث المطالب » ، وقد حذف من الكتاب الأمثلة التطبيقية الموضوعة فى نهاية طبعة (١٨٣٦) ووضع بدلا منها رسالة « نقطة الدائرة في العروض » لناصيف بن عبد الله اليازجي ، وأعادت المطبعة الكاثوليكية في بيروت طبعه عام ١٨٦٥ دون إضافة تعليقات عليه ، كما طبع الكتاب بعد ذلك في مطبعة الحكومة اللبنانية عام ١٨٧٦ .

---

(١٩) انظر : محمد علي الزركان : الجوانب اللغوية عند أحمد فارس الشدياق ، مرجع سابق ، ص - ص ٢٧٥ - ٢٧٧ حيث يحصر فيها آثار الشدياق المطبوعة ، ويذكر من بينها (الأجوبة الجلية فى الأصول النحوية ، مالطة ١٨٤١) ص ٣٧٥ ، وفي هامش (١) من الصفحة ذاتها يذكر أن هذا الكتاب (مختصر لكتاب بحث المطالب لجرمانوس فرحات) . أما محمد الهادى المطوى فيذكر أن هذا الكتاب للشدياق حيث يقول (الأجوبة الجلية في الأصول النحوية ، وهو مختصر كتاب « بحث المطالب » لجرمانوس فرحات (...) والظاهر أن دور الشدياق فيه تمثل في إضافة تعليقات من عنده) ص ١٩٢ من دراسته : أحمد فارس الشدياق : حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية ، القسم الأول ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٩ .

ويبدو أن سعيد الشرتوني قد اهتم اهتماما كبيرا بهذا الكتاب ، إذ أضاف إليه تعليقات وحواشي كثيرة وطبعه بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٨٨٢ ، ثم صدرت من نسخة الشرتوني هذه ست طبعات أخرى في الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٩١٣ .

وقد طبع الكتاب أيضا في جزأين مستقلين ، اشتمل الأول على قواعد الصرف ، وصدر في بعيدا عام ١٩٠٠ تحت عنوان « كتاب الصرف » واشتمل جزؤه الثاني على قواعد النحو ، وطبعه المعلم بطرس البستاني تحت عنوان « كتاب النحو » وأصدره عام ١٩٠٠ أيضا [٢٠] .

إن تعدد طبعات هذا الكتاب ، والتي وصلت إلى ثلاث عشرة طبعة في أقل من ثمانية عقود ، يشير إلى سعة انتشاره بين فئات كثيرة من الطلاب والمتعلمين في فترة لا نعرف أن كتابا من كتب النحو التعليمية الحديثة قد تكرر طبعه فيها هذا العدد من الطبعات ، ولعل هذه الظاهرة الطباعية تعود إلى ما ينطوي عليه هذا الكتاب من تجديد حقيقي نسبي في الدرس النحوي جعله محققا لمتطلبات تجديد هذا الدرس طوال القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد قدم المؤلف لكتابه بمقدمة قصيرة تقع في صفحتين فقط أشار فيها ، بإيجاز شديد ، إلى أسباب تأليفه وإلى طبيعة كتابه ، وبعد مقدمة المؤلف ينقسم الكتاب إلى : مقدمة وثلاثة كتب وخاتمة (حسب مصطلحات

---

(٢٠) حول هذه الطبعات راجع مقال جرجس منش الحلبي وكتاب « جراف » المذكورين في هامش رقم «١» في الصفحة السابقة .

المؤلف . ويعرض المؤلف في المقدمة أحوال الحروف الهجائية والحركات العربية ، بينما يخصص الكتاب الأول لتصريف الأفعال ، والثاني لتصريف الأسماء ، والثالث لقواعد النحو ، على حين تختص الخاتمة بتناول مسائل إعراب الكلام المركب . وقد أشار المؤلف في تقديمه للكتاب إلى هذه الأقسام ، ويجد القارئ قسما في نهاية الكتاب عنوانه « إعراب أمثلة بحث المطالب » ، ومن الراجح أن يكون هذا القسم إضافة من الشدياق الذى نشر الكتاب للمرة الأولى عام ١٨٣٦ بدليل أن المؤلف لم يشر في تقديمه للكتاب إلى هذا القسم .

ومن الملاحظ أن المؤلف قد سمى كتابه في المقدمة « بحث المطالب وحث الطالب » ، وهو الاسم الذى سجله بروكلمان للكتاب [٢١] ، ولكن الاسم المتداول هو « بحث المطالب » إذ هو الاسم الموجود على مخطوطات الكتاب التى أشار إليها كوركيس عواد وأشارت إليه مجلة المشرق في بداية القرن العشرين [٢٢] ، وحمله الكتاب في نشراته المختلفة طوال القرن التاسع عشر ، ولا يستثنى منها إلا نشرة الشدياق التى حملت عنوان « كتاب بحث المطالب في علم العربية » ولهذه التسمية علاقة بمحتوى الكتاب وتحمل دلالة / دلالات تتصل مباشرة بنمط تجديد الدرس النحوى الذى يقدمه هذا الكتاب (وسنتوقف أمام هذه المسألة في فقرة تالية) .

---

(٢١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

(٢٢) انظر : كوركيس عواد : الأصول العربية للدراسات السريانية ، مرجع سابق ، ص ٧٨ ، وانظر أيضا : جرجس منش الماروني الحلبي : مطالب في بحث المطالب ، مجلة المشرق ، السنة الثالثة ، عدد رقم ٢٣ ، الأول من يناير ١٩٠٠ ، ص - ص ١٠٧٧ - ١٠٨٣ .

(٤ / ١) مفهوم تجديد الدرس النحوى ومقوماته :

تتصل المقدمة الأخيرة من مقدمات قراءة كتاب «بحث المطالب» بتحديد مفهوم تجديد الدرس النحوى .

إن التجديد - فى دلالته الأساسية - ينصرف إلى نقد أسس المجال المعرفى الذى يتم تجديده ، أو إعادة تعديل تلك الأسس وتغييرها ، استجابة لحاجة اجتماعية يولدها تطور المجتمع ، ويمكن وصف التجديد بإيجاز بأنه ظاهرة نسبية ، تتحدد نسبيتها فى ضوء مجموعة من المحددات أهمها : طبيعة العلم أو المجال المعرفى أو النشاط الثقافى الذى يتم تجديده ، وطبيعة اللحظة التاريخية التى تفرز الحاجة إلى التجديد ، وطبيعة المتلقى أو الفئات التى يتوجه إليها المجدد بتجديده ، ثم المجدد نفسه ، ولا سيما قدرته على اكتشاف المتغيرات الجديدة التى تدفع إلى التجديد وتوجبه ، وقدرته على أن يبلور النموذج الجديد واعيا بجوانب القصور فى المادة أو المجال المعرفى « الموروث » الذى يسعى إلى تغييره أو تطويره .

يقود التحديد السالف للتجديد إلى تعيين المقصود بتجديد الدرس النحوى ، فالدرس النحوى - فى معناه الضيق فى التراث - ينصرف إلى دراسة مسائل بناء الجملة ، ويتطلب ذلك الدرس تحديد دلالات المصطلحات المستخدمة وتعيين القواعد الأساسية لإنشاء الأنماط المختلفة من الجمل ، وتحديد القواعد الجزئية التى تتصل بالظواهر التركيبية الصغرى ، كظواهر التقديم والتأخير أو الحذف ، أو تتصل بالإمكانات الإعرابية المختلفة لبعض الأنماط النحوية أو التركيبية .

ولقد ورث دارس النحو العربي في العصر الحديث تراثا نحويا ضخما خلفه النحاة العرب في العصور الوسطى ، وهو تراث يتصف ، من ناحية ، بشموله في استقصاء مختلف الموضوعات والظواهر النحوية ، في إطار الحد الزمني الذى وضعه النحاة لعصور الاحتجاج ، كما يتسم من ناحية ثانية ، بعكوف منتجيه على الدرس المفصل لعدد هائل من الظواهر والحالات الصغرى المتصلة بأنماط الجملة ووظائف الأدوات المسهمة فيها .

وقد فرضت طبيعة التراث النحوى العربى على الجهد الحديث للدرس النحوى العربى أن يسعى إلى تدقيق التعريفات والمصطلحات التى استخدمها النحاة العرب « القروسطيون » معتمدا فى هذا على إضافات يستمدها من التراث النحوى نفسه ، وتعديل بعض المفاهيم التى كان النحاة « القدماء » يستندون إليها تعديلا جزئيا ، والاختيار من اجتهادات النحاة « القدماء » ، وإعادة تنسيق أبواب النحو العربى ثم الدعوة أحيانا إلى إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى .

وتكاد تلك الملامح معظمها تبدو جلية فى محاولتى شوقى ضيف لتجديد النحو وتيسير النحو التعليمى .

وستكشف قراءتنا لكتاب « بحث المطالب » عن طبيعة ظواهر تجديد الدرس النحوى فيه ، ويكفى - قبل استنباط هذه الظواهر من قراءة الكتاب - أن نقدم دون تعليق النص الموجز الذى قدمه المؤلف فى تقديمه للكتاب يشير فيه إلى أهدافه ويوضح طبيعة كتابه ؛ فيقول فى المقدمة (أنشأت مؤلفا ينطوى

على مقدمة وثلاثة كتب وخاتمة ، وجمعت فيه ما تفرق من القواعد العربية تصريفا ونحوا في كتب متعددة وأثبتُ منها ما يلزمنا ، ونبذت عنا ما هو غريب منا (....) وأهملت التعليلات المملة والاعتراضات المعلة لما رأيت ابن الحاجب قد حجب الأفهام برواياته ، وابن هشام قد هشم الأوهام بإيراداته ، وابن مالك قد ملك الأذهان بزياداته ، فما هي إلا زيادة تدقيق وتنميق تحقيق ، أو أن لهم في ذلك غرضا لا يشملنا (.....) . إن المقصود من تأليف ما ألفناه وألفناه ثلاثة أمور : الأول إزالة تعقيد العبارات المبهمة ، الثاني : ضم جميع ما تلزمنا معرفته من هذه الصناعة في مؤلف واحد بوجه الاختصار ، الثالث : إيراد شهاداته من الكتب المقدسة حسب الإمكان . وسميته بحث المطالب وحث الطالب . والمقصود منه نفع أولاد المسيحيين لئلا يتغربوا فيتجربوا ولئلا يتعبوا فيُتعبوا » (٢٣) .

إن هذه القراءة تنطلق من فرضية ترى أن اقتناص ظواهر تجديد الدرس النحوى في كتاب « بحث المطالب » يتطلب استنباط مجموعة العلامات الدالة على ذلك التجديد ومقارنتها بالعلامات السائدة في كتاب « التحفة المكتبية » وفي كتب المختصرات النحوية والصرفية في التراث العربي .

(٢) ظواهر تجديد الدرس النحوى في « بحث المطالب » :

يتأسس تجديد الدرس النحوى في « بحث المطالب » على خمس ظواهر

---

(٢٣) جرمانوس فرحات المارونى الحلبي : كتاب بحث المطالب في علم العربية ، مع حواش لمصححه المعلم سعيد الخورى الشرتونى ، الطبعة الرابعة ، مطبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٥ ، ص ٥ من مقدمة المؤلف ، ونشير إلى أن هذه المقدمة ليست موجودة في طبعة الكتاب عام ١٨٣٦ ، وهي الطبعة التي نعتمد عليها في هذه الدراسة .

ذات دلالة وهي : نمط التأليف الذي يتكون من ثلاث علامات رئيسية هي : البنية الكبرى ، والبنية الصغرى ، وتنظيم بعض الأبواب النحوية وفق منطق مبتكر ، ويعد السعي إلي ضبط عدد من مصطلحات الدرس النحوي والتدقيق في صياغتها وإبراز دور الدلالة في ضبطها الظاهرة الثانية منها ، على حين تتمثل الظاهرة الثالثة في تحول الإيجاز في اختيار المادة النحوية إلى علامة دالة . وتنتج الظاهرة الرابعة من تفاعل الظاهرتين السابقتين معا ، وتتمثل فيما يمكن أن يوصف بأنه « بنية تنظيم الموضوع النحوى تنظيما وافيا ودالا » في آن . وأما الظاهرة الخامسة فتتبدى في التمثيل للظواهر النحوية والصرفية بأمثلة تراثية ؛ أي متواترة في كتب النحاة العرب القروسطيين ، وأخرى مستمدة من الثقافة المسيحية .

وتختص كل فقرة من الفقرات التالية بتحليل ظاهرة من هذه الظواهر .

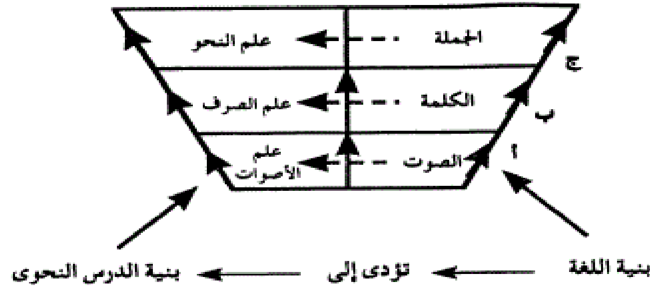
(١ / ٢) نمط التأليف وعلاماته : البنية الكبرى

يمثل نمط التأليف الظاهرة الأولى من ظواهر تجديد الدرس النحوى في كتاب « بحث المطالب » ، ونقصد بهذا النمط الطريقة التي يتبعها المؤلف أو يسنها في تنظيم المادة اللغوية أو النحوية بهدف تحقيق غايات صريحة أو مضمنة في النمط نفسه . ويتشكل نمط التأليف من عدد من العلامات المتوالية والآليات التي تستخدم لتثبيت ذلك النمط في مستوييه الأفقي والرأسي ، ومن تأمل كتاب « بحث المطالب » يتبدى أن هناك ثلاث علامات أساسية تشكل نمط التأليف فيه ، وهي : البنية الأساسية أو الكبرى ، وعلامة تنظيم

المادة أو بعض الأبواب وفق منطق جديد يختلف عن المنطق السائد في كتب النحاة السابقين ، ثم البنية الصغرى بوصفها علامة تتصل مباشرة بطريقة تنظيم المادة النحوية أو اللغوية داخل الوحدة الصغرى أو المطلب حسب اصطلاح جرمانوس فرحات .

وفي ضوء ما سلف يكتشف قارئ « بحث المطالب » أن البنية الأساسية لهذا الكتاب قد شكّلت وفق مبدأ قار في الكتاب دون أن يصرح المؤلف به ، وإن استكشف القارئ تجلياته العينية في « بحث المطالب » ، ويتمثل ذلك المبدأ في تنظيم المادة اللغوية والنحوية على نحو متطور أو متقدم ، يبدأ بمكوناتها الصغرى ، ثم ينتقل منها إلى مكوناتها الوسطى ، في حين يختتم عرضها بتحليل مكوناتها الكبرى ، ويتجلى هذا المبدأ في اختصاص مقدمة الكتاب بتناول عدد من الجوانب الأساسية الخاصة بأصوات اللغة العربية ، بعدها يتم الانتقال إلى الكتاب الأول الذى تدرس فيه مسائل تصريف الأفعال ، ثم يختص الكتاب الثانى بدراسة مسائل تصريف الأسماء ، مما يعنى أن هذين البابين مختصان بدراسة بنية الكلمة المفردة وقوانين صياغتها واشتقاقاتها وما يعتريها من تغيرات بنائية وصوتية مختلفة . في حين يقتصر الكتاب الثالث وخاتمته على دراسة النحو بالمعنى الضيق الذى يعنى بدراسة الجملة وقواعد تركيبها وأنماطها المختلفة .

ويمكن تمثيل بنية « بحث المطالب » على النحو التالى :



بنية اللغة ← تؤدى إلى ← بنية الدرس النحوى

وتكشف بنية الدرس النحوى بهذه الكيفية ، التى يفصح عنها الشكل التوضيحى ، عن عدد كبير من العلامات التى تتعاضد معا على إبراز جانب أساسى من جوانب تجديد ذلك الدرس لدى جرمانوس ، اعتمادا على إعادته تنظيم المادة اللغوية والنحوية القديمة أو الموروثة . ففى المقدمة التى تحتل الصفحات الأربع الأولى من « بحث المطالب » وتحمل عنوان « فى أحوال الحروف الهجائية والحركات العربية » يبدأ جرمانوس بتعريف الحرف وكميته ، ويحدد الحرف من الناحية الاصطلاحية بأنه (صوت يعتمد على مقطع من مقاطع الحلق واللسان والشفتين) [٢٤] ، ثم يحدد الحروف الهجائية العربية ، ويتبع ذلك بتقديم تعريف لمخرج الحرف وكيفية التعرف عليه على النحو التالى : (إن شئت أن تعرف مخرج الحرف فسكنه ثم أدخل عليه الهمزة فى أوله وأصغ إليه فحيث ينقطع صوته فهناك يكون مخرجه) [٢٥] .

---

(٢٤) جرمانوس فرحات : بحث المطالب ، طبعة مالطة عام ١٨٣٦ ، ص ١ .
(٢٥) جرمانوس فرحات : بحث المطالب ، المرجع السابق ، ص ٢ .

فإذا كان جرمانوس قد ساوى بين الحرف والصوت دون أن يعنى بتصنيف الأصوات المختلفة تبعا لمخارجها ، فإنه قد استمد طريقة تحديد مخرج الصوت من التراث اللغوى العربى السابق عليه ، ولعل توجهه بكتابه إلى طلاب يكتبون عنه ويتعلمون منه يفسر تكرار اعتماده على مصطلح الحرف ، وهو حين يفرق بين الحروف الشمسية والحروف القمرية يجعل من هذا التفريق إيذانا بانتقاله إلى معالجة الحركات العربية بوصفها أصواتا إضافية تصاحب نطق الحروف أو الأصوات العربية الأساسية ، وقد عرف الحركة لغة واصطلاحا ، وهى عنده اصطلاحا (ما به يتقوم الحرف على النطق) [٢٦] ، وأتبع ذلك بتحديد ألقاب الحركات مميزا بين قسمين منها : قسم يستعمل فى البناء وهو التصريف ، وألقابه : الضم والفتح والكسر والسكون ، وقسم يستعمل فى الإعراب وهو النحو وألقاب الإعراب عنده هى : الرفع والنصب والخفض والجزم ، وبذلك ميز بين جانبين صوتيين مختلفين يتعلق أولهما ببنية الكلمة ، ويتصل ثانيهما بضبط الحرف الأخير فى بنية الكلمة ضبطا يكشف عن الموقع الإعرابى والوظيفة النحوية للكلمة فى الجملة .

وقد ختم المقدمة بتحديده التهجى الذى عنى به (تعديد الحروف بأسمائها مع حركاتها) [٢٧] ليجمع بذلك بين الحرف بوصفه تمثيلا كتابيا للصوت ، والحركة المصاحبة له بوصفها علامة على تغيير دلالات الحرف فى بنية الكلمة ، ومن ثم تغيير دلالات الكلمة .

---

(٢٦) جرمانوس فرحات : بحث المطالب ، المرجع السابق ، ص ٣ .
(٢٧) جرمانوس فرحات : بحث المطالب ، المرجع السابق ، ص ٤ .

إن بدء الدرس النحوى لدى جرمانوس بمجموعة من الأسس الصوتية التى تفيد فى تحديد النطق السليم والكتابة الصحيحة وبيان أساس تحديد مخارج الحروف ، يمثل مدخلا جديدا فى الدرس النحوى ، إذ لا نجد له نظيرا فى كتب المختصرات الصرفية والنحوية التراثية على اختلاف اتجاهاتها ، بل كانت هذه الكتب حين تعالج الجوانب الصوتية تعالجها فى ثنايا دراستها للمسائل الصرفية والنحوية .

ويمثل هذا جانبا أساسيا من الجوانب التى التفت إليها شوقى ضيف - بعد جرمانوس بما يصل إلى ثلاثة قرون إلا قليلا - سواء فى محاولته لتجديد النحو أو محاولته لتيسير النحو التعليمى ؛ ففى القسم الأول من « تجديد النحو » وضع ضيف فى فاتحته [بعض قواعد ضرورية لخدمة النطق السليم بكلم العربية وحروفها] (٢٨) ، وتناول فيه عددا من الظواهر الصوتية كبعض صفات الحروف والحركات وظواهر اللين والتشديد والتنوين ، والمد والإدغام ثم ألف الوصل وألف القطع (٢٩) ، فضيف إذن قد تناول الجوانب الصوتية التى تناولها جرمانوس فى مقدمة كتابه ، ثم زاد عليها عددا من الظواهر الصوتية التى رأى أهميتها فى تعليم النشء النطق الصحيح بوصفه مقدمة لدرس النحو العربى .

وإذا كان ضيف بمسعاه ذاك يتفق مع جرمانوس فرحات فى أن معرفة دارس النحو العربى عددا من الأسس الصوتية العامة وسيلة أساسية تمكن

---

(٢٨) شوقى ضيف : تجديد النحو ، دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ٤١ .

(٢٩) انظر شوقى ضيف : تجديد النحو ، مرجع سابق ، ص ٤٢ ، ص - ص ٤٩ - ٥٨ ، حيث يقدم ضيف هذه القواعد المشار إليها فى المتن ، وانظر : شوقى ضيف تيسير النحو التعليمى ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

الدارس من إتقان درسه العربية - فإن هناك أمرين يفرقان بين ضيف وجرمانوس في هذا الجانب ، يتمثل أولهما في أن تصور ضيف ضرورة بدء الدراسة النحوية بدرس بعض الأسس والجوانب الصوتية ليس هدفه مجرد مساعدة الدارس على النطق الصحيح فقط ، بل هناك - فيما يرى - ضرورة عملية تتمثل في انفصال تعليم النحو العربي في العصر الحديث عن تعلم تجويد القرآن [٣٠] .

وأما ثاني هذين الأمرين فيتمثل في أن ثمة احتمالا كبيرا أن يكون ابتداء جرمانوس « نظامه » في تعليم النحو العربي بدراسته بعض الجوانب الصوتية راجعا إلى تأثره بكتب تعليم اللغات في إطار الحضارة الأوروبية ، وبطريقة تصنيف المستشرقين لمادة النحو العربي أو قواعد العربية في إطار تعليمهم اللغة العربية [٣١] . (وسنتوقف بالتفصيل أمام ذلك الأمر في موضع تال) .

---

(٣٠) انظر : شوقي ضيف : تجديد النحو ، مرجع سابق ، ص - ص ٤١ - ٤٢ .

(٣١) يبدو من مراجعة عدد من كتب قواعد اللغة العربية التي ألفها المستشرقون أن هناك نمطا تأليفيا سائدا فيها ، يقوم على البدء بالدراسة الصوتية الموجزة ، تتبعها الدراسة الصرفية ثم النحوية ، ونمثل هنا بكتاب بلاشير :

- Blachere et Gaudefroy : Grammaire de L'Arab Classique, Paris 1952 .

فهو ينقسم إلى جزئين يعالج أولهما الصرف أو بنية الكلمة ، بينما يعالج الثاني النحو ، أو بنية الجملة ، ويبدأ القسم الأول بتناول الأصوات العربية ، ثم يدرس الضمائر الشخصية ، ويتبعها بدراسة صيغ الأفعال (أي الماضي والمضارع والأمر) ثم ينتقل إلى دراسة صيغ الأفعال المشتقة من الثلاثي ، ويتبع ذلك بدراسة الأسماء وصيغها ، ثم يتناول تصريف الأفعال مع الضمائر ، ثم يتناول صيغ الجمع ، ويكمل هذا الجزء بدراسة مختلف المسائل التي تدور في إطار بنية الكلمة المفردة وصيغها (مثل مسائل التعريف والتنكير ، وأسماء الإشارة والظروف وأدوات النفي) .

وأما الجزء الثاني فيتناول مسائل النحو أو التركيب وقضاياه ، فيبدأ بتناول مسائل الفعل ، ثم ينتقل إلى تناول بنية العبارات البسيطة ويقصد دراسة تركيب الجملة الاسمية ، ثم الجملة الفعلية ، ودراسة النفي والاستثناء ويتبع ذلك بتناول تركيب وبنية العبارات المعقدة كالجمل القائمة على الروابط (مثل حتى - الفاء - الواو) والجمل الشرطية .

ويتجلى المبدأ الأساسى الحاكم لبنية هذا الكتاب فى ظاهرة أخرى هى تناول المؤلف للصرف أو التصريف ، فقد خصص جرمانوس فرحات الكتاب الأول من « بحث المطالب » لدراسة تصريف الأفعال ، وخصص الكتاب الثانى لتصريف الأسماء ، حيث درس فى هذين الكتابين كل ما يتعلق بمسائل تصريف الأسماء والأفعال ، سواء ما يتصل بالصيغ والمشتقات المختلفة أو ما يتصل بالتغيرات الصوتية والبنائية التى تتعرض لها تلك الصيغ (٣٢) .

وإذا كانت القضايا التى عالجها جرمانوس فى هذين الكتابين هى قضايا بنية الكلمة المفردة ، فإن وضع كتابى تصريف الأفعال والأسماء فى موضع يتوسط بين المقدمة المتصلة ببعض مسائل الدراسة الصوتية والكتاب الثالث الذى يقدم قواعد النحو ، إنما يؤكد أصالة المبدأ الأساسي الذى استند إليه جرمانوس فى تنظيم المجالات الأساسية للدرس النحوى عنده ، وهو مبدأ الانتقال من الوحدات البسيطة (= الأصوات) إلى الوحدات المركبة (= الكلمات) ثم الوحدات الأكثر تركيبا (= الجمل) .

وقد علل جرمانوس تقديمه الصرف / التصريف على النحو بقوله إن التصريف (له التقدم فى التعلم على النحو لأن الذى لا يعرف المفردات لا يعرف الإعراب الذى هو تغيير فى أواخرها) (٣٣) .

ويعد ذلك دالا من دوال التجديد فى بنية التأليف عند جرمانوس ، وهذا

---

(٣٢) انظر : بحث المطالب : ص - ص ٥ - ٧١ ، ٧٢ - ١٠٤ ، حيث يعرض جرمانوس تصريف الأفعال ثم تصريف الأسماء .

(٣٣) بحث المطالب فى علم العربية ، مع حواش عليه لمصححه المعلم سعيد الخورى الشرتونى ، الطبعة الرابعة ، مطبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٥ ، ص ١١ .

ما تكشف عنه مقارنة جرمانوس بالمؤلفات التراثية - لا سيما المختصرات النحوية والصرفية - ففي كتاب « الجمل في النحو » للزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) نجد أنه (بعد أن بدأ ببعض التقسيمات الصرفية تناول مجموعة من الأبواب النحوية ، يظهر في ترتيبها احتفاله بالعامل ، وشغلت هذه الأبواب الجزأين الأولين إضافة إلى بعض الجزء الثالث من الكتاب ، لكنها لم تخل من الإشارات الصوتية أو الصرفية ، ثم أتبعها طائفة من الأبواب الصرفية كالتصغير والنسب وألف الوصل والقطع ، والمؤنث والمذكر والأفعال المهموزة ، إضافة إلى أبواب في الهجاء وأحكام الهمزة في الخط ، واحتلت هذه أكثر الجزء الثالث وجانبا من الجزء الرابع ، وعاد في الجزء الأخير من الكتاب إلى عرض أبواب نحوية تدور في معظمها حول الأدوات واستخداماتها ، وأبواب الحكاية ثم عرض بقية الأبواب الصرفية كجمع التكسير وأبنية المصادر والأسماء والأفعال ، وختم كتابه بأبواب في الأصوات اللغوية كالإمالة والإدغام ، والإبدال ، والإعلال ، والحروف المجهورة والمهموسة) (٣٤)

وبينما كاد ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) يقصر كتابه « اللمع في العربية » على تقديم معظم الأبواب النحوية فإنه قد عالج ثلاثة من أبواب الصرف وهي النسب والتصغير والإمالة ، ورغم أنه قدم هذه الأبواب الصرفية في آخر كتابه فإنه (ذكر خلالها بعض أبواب النحو) (٣٥) ، متابعا في هذا بعض أصحاب المطولات النحوية كسيبويه وغيره من النحاة العرب القدامى .

---

(٣٤) مقدمة علي توفيق الحمد لكتاب الزجاجي : الجمل في النحو ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دار الأمل ، الأردن ، ١٩٨٤ ، ص - ص ١٠ - ٢١ .

(٣٥) حسين محمد محمد شرف : مقدمة تحقيقه لكتاب ابن جني : اللمع في العربية ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٤٨ .

ولعل الأمر اللافت للانتباه – في سياق مسألة العلاقة بين التصريف والنحو – أن ابن جني قد حد في كتابه « المنصف » التصريف والنحو حدين دقيقين ، وبنى على ذلك تصوره لما يجب أن تبتدئ به الدراسة اللغوية ، ولكنه لما وجد أن نظام التأليف في كتب النحاة يخالف تصوره « المنطقي » سعى إلى تبرير هذه المخالفة ، وهو يقول في نص « ناصع » الدلالة إن (التصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة ، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة (.....) وإذا كان كذلك ، فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة ، إلا أن هذا الضرب من العلم لما كان عويصا بدئ قبله بمعرفة النحو ، ثم جئ به بعد ليكون الارتياض في النحو موطئا للدخول فيه ، ومعينا على معرفة أغراضه ومعانيه) [٣٦] .

وإذا كان ابن جني لم يلتزم مبدأه ذلك في كتابه « اللمع » فإن كتاب « ارتشاف الضرب من لسان العرب » لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) يمثل النموذج الوحيد – فيما نعلم – في التراث النحوي العربي الذي يؤسس للدرس النحوي بنية تقدم الدرس الصوتي ، وتتبعه بالدرس الصرفي ، وتتلوه بالدرس التركيبي ، فقد بدأ درسه بتحديد مخارج الحروف ، والصفات الصوتية للحروف ، ثم انتقل إلى دراسة « أحكام الكلم قبل التركيب »

---

(٣٦) ابن جني : المنصف ، شرح كتاب التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٤ ، الجزء الأول ، ص ٤ – ٥ .

ويقصد بها موضوعات التصريف وقضاياه ، على حين جعل من الدرس النحوى خطوة تالية تقوم على تحليل أحكام الكلم حالة التركيب (٣٧) .

ولكن « ارتشاف الضرب » واحد من كتب المطولات النحوية ، ولذا كان مؤلفه يكثر من عرض الآراء المختلفة في مسائل التصريف والنحو ، كما كان يكثر من الشواهد والأمثلة والتفصيلات ، ولم يتح لهذا النموذج التأليفى أن يؤثر – فيما نعلم – فى النحاة التالين لأبى حيان الأندلسى .

ويمثل صنيع جرمانوس فى تقديمه درس الصرف على درس النحو تحقيقا لأصل المبدأ « التنظيمى » الذى شرحه ابن جنى ، كما كان صنيع فرحات جرمانوس استجابة لحاجات عملية لا تتصل بالنحو فقط ، بل تتصل أيضا بالبعد الأساسى فى عمليات الاتصال اللغوى ، شفاهيا كان أم كتابيا ، وهو تحقيق التواصل ونقل الأفكار والخبرات بين طرفى الاتصال ، مما يجعل من معرفة قواعد التصريف وأسسه أداة ضرورية للكشف عن معانى الكلمات فى المعاجم ، ومن ثم ييسر إمكانية التواصل اللغوى (وفهم النصوص العربية فى مستوياتها المختلفة) (٣٨) .

إن تقديم الدرس الصرفى على الدرس النحوى « بمعناه الضيق » يجعل من أولهما خطوة مؤسسة لثانيهما ، دون أن ينفى مع هذا أنهما يشكلان (كلا

(٣٧) انظر : ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تأليف أبى حيان الأندلسى ، تحقيق وشرح ودراسة رجب عثمان محمد ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٩٨ .

(٣٨) محمد عيد : الصرف الواضح لبنية الكلمات العربية ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٣ ، الجزء الأول ، ص ٨ .

متكاملا وإن كان ذا جانبين أو مرحلتين » (٣٩) .

ومن اللافت للانتباه أن محاولات تجديد الدرس النحوى العربي في العصر الحديث لم يلتفت أصحابها إلى ضرورة تقديم الدراسة الصرفية على الدراسة النحوية إلا في النصف الثاني من القرن العشرين (٤٠) ، وهذا ما يبدو بوضوح لدى أنيس فريحة في الخمسينيات ، ولدى شوقي ضيف في الثمانينيات ، فأنيس فريحة ينطلق من مبدأ مؤداه أن « قواعد أية لغة كانت وحدة تامة لا تتجزأ ، ويجب أن تدرس كوحدة ، وهذا ما يفرضه علينا منطق اللغة ذاتها » (٤١) ، ويؤسس على ذلك المبدأ مبدأ آخر يصفه بأنه التحليل العلمي للغة ، وهو المبدأ الكاشف عن تشكل اللغة من أربع مراتب - حسب مصطلحات فريحة - تتألف « منطقيا » من البسيط (= مرتبة الفونيمات) فالمركب (= مرتبة المقاطع) فالأكثر تركيبا (= مرتبة الكلام المفيد) ، فمرتبة الأساليب التعبيرية الفنية) ويؤكد أن « هذا أدق تحليل علمي لأية لغة ، وعلى هذه المراتب يجب أن يجرى تدريسها » (٤٢) ووضع « القواعد في ترتيب متناسق متصل يتمشى وروح اللغة » (٤٣) .

---

(٣٩) كمال محمد بشر : دراسات في علم اللغة ، القسم الثاني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ٣١ .

(٤٠) يمكن أن نجد نموذجا لمتابعة جرمانوس فرحات في تقديم الدرس الصرفي على الدرس النحوى في كتاب الثمرنة في الأصول النحوية الذى أصدره يوسف داود الموصلي عام ١٨٦٩ ، وهو يقع في جزأين يتناول المؤلف في أولهما التصريف ، بينما يتناول النحو في ثانيهما ، انظر الكتاب ، طبع دير الآباء الدومينكيين بالموصل ، الجزء الأول ١٨٧٥ ، الجزء الثاني ١٨٧٦ .

(٤١) أنيس فريحة : في اللغة العربية وبعض مشكلاتها ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٦٦ والاقتباس من فصل عنوانه : هذا الصرف وهذا النحو ، وقد نشره فريحة للمرة الأولى في مجلة الأبحاث ، الجزء الأول ، آذار ١٩٥٥ .

(٤٢) أنيس فريحة : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤٣) أنيس فريحة : نظريات في اللغة ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٦٦ ، والاقتباس من فصل عنوانه « تيسير تعليم العربية » ، وتشير إلى أن فريحة قد طبق دعوته تلك في مؤلفاته الخاصة بتعليم العربية منذ منتصف الخمسينيات ، ومنها : نحو عربية ميسرة ١٩٥٥ ، وتبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة ١٩٥٩ .

وحين تقدم شوقي ضيف بمحاولته لتجديد النحو وضع مسائل تصريف الأفعال في القسم الأول من أقسام كتابه ، بينما وضع مسائل تصريف الأسماء في القسم الثاني من أقسام كتابه ، حيث احتلت هذه المسائل نصف صفحات ذلك القسم (٤٤) ، وإن كان الأمر اللافت للانتباه هنا أن شوقي ضيف لم يطرح مبدأ نظريا يؤسس به لتقديم الدرس الصرفي على الدرس النحوى ، بينما قرر جرمانوس ذلك المبدأ بدقة منذ بداية القرن الثامن عشر ، الأمر الذى يمثل دالا من دوال تجديد الدرس النحوى لديه .

ومن اللافت للانتباه أن جمع جرمانوس بين الدرس الصوتي الموجز والدرسين الصرفي والنحوى يمثل علامة أخرى دالة على تجديده الدرس النحوى ؛ إذ يبدو ذلك الصنيع إحياء للمعنى الأصلي للنحو في التراث العربى ، ذلك المعنى المطابق لعلم قواعد العربية بجوانبه الثلاثة : الأصوات والأبنية والتراكيب ، وهذا المعنى القار لدى سيبويه (ت ١٨٠ هـ) في « الكتاب » والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) في « المقتضب » والزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) في « المفصل » ، ويختلف هذا المعنى عن المعنى الذى حدده متأخرو النحاة – ابتداء من الأشمونى (ت ٩٠٠ هـ) وغيره – للنحو ، فقد قصروه على قوانين الإعراب والبناء (٤٥) .

(٢ / ١ / ٢) تنظيم بعض أبواب النحو وفق منطق مبتكر

تتصل العلامة الثانية المشكلة للبنية الكبرى في « بحث المطالب » بطريقة

---

(٤٤) انظر : شوقي ضيف : تجديد النحو : مرجع سابق ، ص – ص ٥٩ – ٨١ ، حيث يعرض ضيف أقسام الفعل وتصاريفه ، ص – ص ٨٥ – ١٠٨ ، يعرض أقسام الاسم وتصاريفه . ص – ص ١٣٢ – ١٣٤ حيث يعرض مسألتي التصغير والنسب .

(٤٥) حول معاني النحو في التراث النحوى العربي انظر : دراسة عبد الوارث مبروك سعيد : في إصلاح النحو العربي ، دراسة نقدية ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، الكويت ١٩٨٥ ، ص – ص ١ – ٧ .

تنظيم بعض أبواب المادة النحوية من حيث تتابعها أو وضعها وفق منطق مختلف عن « المناطق » التي سادت كثيرا من كتب المختصرات النحوية . واللافت للانتباه أن عددا من كتب المختصرات النحوية التراثية كان منطق تنظيم الأبواب والموضوعات فيها يقوم على توالي الأبواب أو الموضوعات المتتابعة دون منطق رابط أو سببي يصل وصلا منطقياً ومتيناً بين الأبواب أو الموضوعات المتتابعة ، ويتجلى ذلك في تداخل الموضوعات النحوية والصرفية والصوتية في عدد من الأبواب المتتابعة من ناحية ، وتوالي الموضوعات النحوية (بالمعنى الضيق لمصطلح النحو) دون أن يكون ذلك التوالي قائما على صلة منطقية تربط بينها ، من ناحية ثانية . وهاتان علامتان دالتان على « اضطراب » هذا الجانب (أعني جانب ترتيب موضوعات المادة النحوية أو تنظيمها) بوصفه جانبا من جوانب البنية الكبرى في نمط التأليف ، وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في عدد من المختصرات النحوية ، منها : كتاب « الجمل » للزجاجي ، وكتاب « التوطئة » للشلوبيني (ت ٦٤٥ هـ) وهي أكثر وضوحا في الكتاب الثاني [٤٦] .

(٤٦) انظر : كتاب الجمل للزجاجي ، مرجع سابق ، وانظر أيضا : الشلوبيني (أبو علي عمر بن محمد الأشبيلي) : التوطئة ، دراسة وتحقيق يوسف أحمد المطوع ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨١ ، ففي « التوطئة » يجد القارئ بعد أبواب الكلام والمعرب والمبني وعلامات الإعراب أن الباب التالي لها هو باب الأفعال بالنسبة للزمان ، يليه باب الجوازم الذي يتصل ببعض أنماط الأفعال ، ويليه باب المثنى الذي يعد دراسة نحوية وصرفية ، ويعقبه باب الفاعل ، ثم باب المفعول فباب الموصولات الاسمية (= الأسماء الموصولة) ، ويليه باب النعت (الذي يعد من التوابع) ويليه بابا المضمر والعلم ، ثم ينتقل المؤلف إلى تناول بابين من أنواع التوابع وهما بابا التوكيد والبدل ، ثم يعود لتناول بابين من أنواع التوابع وهما بابا التوكيد والبدل ، ثم يعود لتناول الفعل فيقدم بابين أحدهما للفعل المتعدي والفعل غير المتعدي ، وثانيهما لتعدي الفعل ، ثم يتناول الظرف فالحال في بابين متواليين لينتقل بعد ذلك إلى تناول المبتدأ أو الخبر وبعض الأبواب التي تتصل بهما .

وإذا كان بروز الظاهرة السابقة في عدد من كتب المختصرات النحوية التراثية قد يرد إلى تصور مؤلفيها عدم حاجة قراء كتبهم إلى بنية تأليفية قائمة على منطق متماسك ، فإن اللافت أن لغويا وبلاغيا تراثيا كعبد القاهر الجرجاني قد أسس القسم الأكبر من كتابه « كتاب الجمل في النحو » على فكرة العامل الظاهر اللفظي مميزا بين عوامل الأفعال وعوامل الحروف وعوامل الأسماء [٤٧] .

وينهض صنيع عبد القاهر ذاك دالا على مسعاه إلى تأسيس توالي عدد من الأبواب أو الموضوعات النحوية على منطق متماسك ، ويبدو أن هذا المسعى دال من دوال التجديد في بنية التأليف في عدد من المحاولات الحديثة لتجديد الدرس النحوي العربي ، وهذا ما نستطيع أن نتبينه بوضوح من الوقوف أمام عدد من نماذجه في « بحث المطالب » « والتحفة المكتبية » « وتجديد النحو » وهي نماذج النواسخ والمنصوبات والمرفوعات .

ولعل ما تجب الإشارة إليه بداية أن كلا من جرمانوس فرحات ورفاعة الطهطاوي لم يصرحا بأي أساس من الأسس التي دفعتهما إلى تنظيم بعض أبواب النحو أو موضوعاته بالكيفية التي اتبعاها ، مما يعني أن قارئ كتابيهما عليه السعي لاستنباط تلك الأسس ، على حين وضع شوقي ضيف لتجديده الدرس النحوي عدة أسس يهمنا منها ، في هذا السياق ، مبدأ إعادة تنسيق

(٤٧) انظر : عبد القاهر الجرجاني: كتاب الجمل في النحو ، شرح ودراسة وتحقيق يسرى عبد الغني عبد الله ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠ ، ص - ص ٧٥ - ٩٥ .

أبواب النحو الذى جعله يدعو إلى حذف بعض الأبواب ، بمعنى عدم استقلالها ، وضم بعض الأبواب إلى أبواب أخرى لصلة بينها محاولا أن يعلل دعوته تلك في دراسته لعدد من أبواب النحو (٤٨) .

ويمكن عرض موضوعات النواسخ في « بحث المطالب » و « التحفة المكتبية » و « تجديد النحو » مع الحفاظ على طريقة الترتيب داخل كل منها إذ قد تحمل تلك الطريقة دلالة ما (٤٩) .

جدول (١) النواسخ

م	بحث المطالب	التحفة المكتبية	تجديد النحو
١	الأفعال الناقصة	كان وأخواتها جزء من المرفوعات	وضعت في باب الحال .
٢	أفعال المقاربة	كاد وأخواتها جزء من باب المرفوعات .	كاد وأخواتها جزء من قسم « مفعول به واحد » في إطار باب المفعول به .
٣	ما ولا ولات المشبهات بليس*	الحروف المشبهة بليس جزء من باب المرفوعات .	حذفت حذفا واجبا دون ردها لأبواب أخرى في النحو .
٤	إن وأخواتها (الحروف المشبهة بالفعل)	اسم إن جزء من المنصوبات وخبرها جزء من المرفوعات .	إن وأخواتها جزء من المرفوعات .
٥	لا النافية للجنس	لا النافية للجنس جزء من المنصوبات .	لا النافية للجنس جزء من المرفوعات .
٦	أفعال القلوب (ومنها ما ينصب مفعولين ، ومنها ما ينصب ثلاثة مفاعيل)	ما يتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة مفاعيل جزء من المفعول به في إطار المنصوبات .	مثل التحفة المكتبية .

(٤٨) انظر : شوقي ضيف : تجديد النحو ، مرجع سابق ، ص – ص ١١ – ٢٣ .
(٤٩) انظر : موضوعات النواسخ في المصادر الثلاثة على النحو التالي :
- بحث المطالب ص – ص ١٤٤ – ١٦٠ .
- التحفة المكتبية ص – ص ١٤٩ – ١٥٣ ، ١٩٢ – ١٩٧ ، ٢٣٦ – ٢٤٥ ، ص ٤١٨ على التوالي .
- تجديد النحو ص – ص ١٤٥ – ١٤٩ ، ١٥٠ – ١٥٢ ، ١٦٥ – ١٦٦ .

إن تأمل هذا الجدول يكشف عن النتائج التالية :

أ - جعل جرمانوس فرحات من الموضوعات التي يضمها الجدول موضوعا واحدا سماه النواسخ وخصص له قسما بنفس العنوان ، استنادا إلى أن هذه النواسخ [تدخل على المبتدأ والخبر وتغيرهما لفظا ومعنى ، فالتغيير اللفظي هو نقل الإعراب من حال إلى حال ، والتغيير المعنوي هو نقل الحدوث من زمن إلى زمن ، ومن جواز إلى وجوب ، وغير ذلك] (٥٠) .

وتأمل هذا التعليل يكشف عن أن منطق الجمع بين هذه النواسخ يقوم عنده على سببين هما : تشابه هذه العوامل أو اشتراكها في وظيفة واحدة هي النسخ ، ثم دخولها على نمط واحد من أنماط الجمل وهو نمط الجملة الاسمية . مما يشير إلى أن أساس ضم الأبواب الستة معا في إطار النواسخ يتمثل في فكرة العامل ونمط الجملة معا .

ب - يبدو وضع الطهطاوي للنواسخ قائما على منطق الحالة الإعرابية ، ولذا وضع الأبواب / الموضوعات الأربعة الأولى من النواسخ في إطار المرفوعات على حين وضع البابين الأخيرين منها في إطار المنصوبات . ولكن مشكلة تقسيم الطهطاوي تتمثل فيما أدي إليه من فصل عناصر بعض أنماط الجملة الواحدة ومعالجتها في أبواب مختلفة ، فاسم كان وأخواتها واسم كاد وأخواتها عولجا في باب المرفوعات ، في حين عولج خبرهما في باب المنصوبات ، وذلك على العكس من إن وأخواتها التي عولج اسمها في باب المنصوبات أما خبرها فعولج في باب المرفوعات .

ج - تبدو محاولة شوقي ضيف في تنظيم هذه الأبواب ذات دلالتين ، أولاهما تشير إلى تشابهه مع الطهطاوي ، فقد وضع أفعال القلوب في إطار المفعول به في قسم المنصوبات ، بينما اختلف عنه في معالجته و كاد

(٥٠) بحث المطالب : ص ١٤٤ .

وأخواتها » في إطار المفعول به الواحد في قسم المنصوبات ، وتناول « إن وأخواتها » «ولا النافية للجنس » في إطار باب المرفوعات .

وأما ثاني الدلالتين فتتمثل في نقل شوقي ضيف باب الأفعال الناقصة إلى باب الحال أخذا برأي الكوفيين في النظر إلى اسم « كان وأخواتها » باعتباره فاعلا ، بينما عدوا خبرها حالا ، كما رأى ضيف أن باب « ما ولا ولات العاملات عمل ليس » باب واجب الحذف دون حاجة إلى رده لباب آخر من أبواب النحو [٥١] . ولعل تلك الدلالة الثانية تشير إلى جرأة محاولة ضيف في تجديد النحو العربي .

أما باب المنصوبات فيمكن مقارنته في المصادر الثلاثة[٥٢] على النحو التالي :

ويكشف تأمل هذا الجدول عن النتائج التالية :

جدول (٢) المنصوبات

م	بحث المطالب	التحفة المكتبية	تجديد النحو
١	المفعول المطلق	المفعول به	المفعول به
٢	المفعول به	المفعول المطلق	المفعول المطلق
٣	المفعول فيه	ظرف المكان وظرف الزمان	المفعول فيه
٤	المفعول له	الحال	المفعول له
٥	المفعول معه	التمييز	المفعول معه
٦	المنادى	المستثنى	الاستثناء
٧	الاستثناء	اسم لا النافية للجنس	الحال
٨	الحال	المنادى	التمييز
٩	التمييز	خبر كان وأخواتها واسم إن	النداء
١٠	أفعل التفضيل	المفعول من أجله	ضم أفعل التفضيل إلى التمييز
١١	الكنايات	المفعول معه	ضم الكنايات إلى باب التمييز
١٢	اسم العدد	النعت	عالجه موضوعا مستقلا .
١٣	التحذير والإغراء	الفعل المضارع	موضوع مستقل . وضع ضيف التحذير والإغراء في إطار باب الذكر والحذف .

(٥١) شوقي ضيف : تجديد النحو ص - ص١١ - ١٤ ، حيث يتناول مسألة كان وأخواتها ، ص -ص ١٤ - ١٥ حيث يتناول مسألة إلا ولات المشبهات بليس .

(٥٢) انظر : باب المنصوبات في المصادر التالية : بحث المطالب ص ١٦٠ - ١٩١ ، التحفة المكتبية ص - ص ١٨١ - ٢٧٩ ، تجديد النحو ص - ص ١٦٣ - ١٩٧ .

أ - يستند وضع جرمانوس للأبواب التي يضمها قسم المنصوبات عنده إلى فكرة العامل في النصب ، فما يجمع هذه الأبواب، معا هو كونها صيغا لازمة النصب كما أنها - فيما عدا الكنايات - أسماء ، على حين ضم قسم المنصوبات عند الطهطاوى الفعل المضارع المنصوب

ب - يستند ترتيب أبواب المنصوبات لدى جرمانوس فرحات إلى تمييزه بين نمطين منهما وهما : المنصوبات الأصلية وتشمل المفعولات الخمسة ثم المنصوبات الملحقة بالأصل وتشمل الأبواب الثمانية التي يضمها هذا القسم ، فالترتيب لديه قائم على فكرة الأصل والفرع ، مع تقديم الأصل وإتباع الفرع له (٥٣) ويبدو أن هذه الفكرة لم تكن واضحة في تصور الطهطاوى لترتيب المنصوبات حيث تناثرت أنماط المفعولات لديه وسط أنماط المنصوبات الأخرى .

ويبدو لافتا للانتباه أن يستمد جرمانوس تمييزه بين نمطين من المنصوبات من عدد من النحاة العرب القروسطيين كالزمخشرى في « الأنموذج » وابن هشام في « شذور الذهب » ؛ فكلاهما وضعا المفاعيل الخمسة في إطار المنصوبات الأصلية ، في حين جعلا من المنصوبات الأخرى منصوبات فرعية تحمل على الأصل وتلحق به (٥٤) .

---

(٥٣) قد يبدو هذا الترتيب قريبا من ترتيب ابن جنى في اللمع لما أسماه « معرفة الأسماء المنصوبة » حيث قسمها إلى ضربين هما مفعول وشبيه بالمفعول ، وعلى حين شمل الضرب الأول المفاعيل الخمسة ، فقد شمل الضرب الثاني : الحال والتمييز والاستثناء ، وأسماء إن وأخواتها ، ثم أخبار كان وأخواتها ، والملاحظ أن الاختلاف الشديد بين ترتيبي جرمانوس وابن جنى يظهر في الضرب الثاني خاصة ، انظر اللمع ، مرجع سابق ص - ص ١٣١ - ١٥٤ .

(٥٤) انظر : الأردبيلي (جمال الدين محمد بن عبد الغني) : شرح الأنموذج في النحو للزمخشري ، حققه وعلق عليه حسني عبد الجليل . مكتبة الآداب ١٩٩٠ ، ص .
وانظر أيضا : ابن هشام الأنصاري : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة العاشرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢١٣ .

وعلى الرغم من ذلك فقد عدل جرمانوس من وضع بعض الأنماط المنصوبة التى وضعها الزمخشرى وابن هشام فى إطار المنصوبات الفرعية ؛ إذ استبعد اسم إن واسم لا النافية ، وخبر كان وأخواتها ، وخبر ما ولات اللتين بمعنى ليس ، والفعل المضارع المسبوق بناصب من النواصب ، من ذلك الإطار ، على حين حافظ الطهطاوى على وضعها فى إطار المنصوبات (٥٥) .

ج - يلتقى شوقى ضيف مع جرمانوس فى تقديمه المفعولات الخمسة على الأبواب الأخرى فى قسم المنصوبات ، وإذا كان ضيف قد التقى بالطهطاوى فى تقديم المفعول به على بقية المفعولات ، ووضعه على رأس قائمة المنصوبات فإن تقديم جرمانوس فرحات للمفعول المطلق على المفعول به يمكن فهمه بوصفه نتاجا لتقديمه المصدر على الفعل فى الاشتقاق (٥٦) مما يتطلب تقديم المفعول المطلق - على غيره من المفاعيل - لكونه صيغة المصدر أو ما ينوب عنها .

د - يمكن وصف نمط تنظيم باب المنصوبات فى « بحث المطالب » بأنه يبدو أكثر دقة من مثيله فى « التحفة المكتبية » ، فهو - فضلا عن النتائج السابقة - يتلافى ما يبدو فى « التحفة المكتبية » من معالجة جزء من جملة « كان » وجزء من جملة « إن » فى باب المنصوبات ، ووضع حالة من حالات النعت فى ذلك الباب .

---

(٥٥) انظر شرح الأنموذج ، المرجع السابق ، ص - ص ٥٧ - ٦٥ . شذور الذهب ، المرجع السابق ، ص - ص ٢٦٧ - ٣١٦ ، وقارنها ببحث المطالب ، ص - ص ١٦٠ - ١٩١ .

(٥٦) انظر . بحث المطالب ، ص ٧ ، ونشير إلى أن الزمخشرى قد قدم فى « الأنموذج » المفعول المطلق على غيره من المفاعيل .

إن كل النتائج التى تكشف عنها مقارنة بابى المنصوبات والنواسخ فى بحث المطالب بالتحفة المكتبية تتجلى معظمها أيضا فى مقارنة قسم المرفوعات بهما (٥٧) .

إن النتيجة الأساسية التى تتبدى من دراسة طريقة جرمانوس فرحات فى تنظيم بعض الأبواب النحوية مقارنة بطريقة الطهطاوى تشير إلى أن تنظيم المادة النحوية فى أقسام يشير إلى أن وضع عدد من الأبواب متوالية تواليا قائما على منطق سببى أو متماسك يمثل فارقا دالا بين « بحث المطالب » و « التحفة المكتبية ».

وتمثل هذه النتيجة المرتبطة بكيفية ترتيب عدد من الأبواب النحوية لدى جرمانوس دالا على منهجية حديثة تسعى إلى التغلب على ما ساد كثيرا من المؤلفات النحوية التراثية – سواء أكانت مطولات أم مختصرات – من اضطراب فى تنظيم المادة النحوية (٥٨) .

وهذه النتيجة تشير إلى أن طريقة التغيير أو التعديل فى تنظيم الأبواب النحوية داخل مؤلف ما قد تكون دالا من دوال التجديد أو التقليد فيه ، إذ إن هذا الدال ليس إلا علامة من العلامات المشكلة للبنية الكبرى فى نمط التأليف .

---

(٥٧) انظر باب المرفوعات فى مواضعه من المصادر التالية :
- بحث المطالب : ص – ص ١٣٢ – ١٣٧ حيث شمل : الفاعل ونائب الفاعل ، ثم المبتدأ والخبر .
- التحفة المكتبية : وقد شمل الأبواب التالية : الفاعل ، نائب الفاعل ، المبتدأ والخبر ، اسم كان وأخواتها وما ألحق بها ، خبر إن وأخواتها ، المرفوعات من التوابع ، الفعل المضارع الذى لم تتصل به نون التوكيد ص ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٨١ .
- تجديد النحو ، وقد شملت المرفوعات : المبتدأ والخبر ، إن وأخواتها ، لا النافية للجنس ، الفاعل ، ثم نائب الفاعل ، ص – ص ١٣٥ – ١٦٠ .

(٥٨) انظر : حسن عون : تطور الدرس النحوى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠ ، ص – ص ٨٥ – ٨٨ حيث يرصد أسس تصنيف المادة النحوية فى عدد من كتب التراث النحوى ، ويكشف عما فى عدد منها من اضطراب وغموض .

(٣/١/٢) البنيـــة الصغــرى :

تمثل البنية الصغرى علامة من علامات بنية التأليف « القارة » في « بحث المطالب » وتبدو أهمية تلك العلامة في كونها كاشفة عن طريقة تنظيم المادة اللغوية أو النحــوية داخل الوحـدة الصغـرى في التـأليف ، وهي التي تسمى « المطلب » في مصطلحات التأليف عند جرمانوس فرحات .

وإذا كـان كتـاب « بحث المطالب » ينقـسم إلى ثلاثة كتب تقـدم على التوالي : تصريف الأفعال ، فتصريف الأسماء ، ثم قواعد النحو ، فإن كل كتاب منها ينقسم بدوره إلى عدة أقسام ، على حين ينقسم القسم الواحد إلى عدة أبحاث ، بينما يتفرع البحث إلى عدد من المطالب التي يزيد عددها أو يقل تبعا لمادة الموضوع النحوي الذي يعرض فيه .

وإذا كانت كل الأقسام السابقة (الكتاب ، القسم ، البحث ، المطلب) تحمل عناوين تشير إلى المواد التي تقدمها أو تعالجها ، فإن كلا من « الأقسام » و « الأبحاث » تحمل عناوين دون أن تتضمن مادة أو موادا تشرحها ، بينما وضعت المواد كلها داخل المطالب فقط . وتشتمل هذه المواد على القواعد النحوية والصرفية وشروحها أو أمثلتها .

فالمطلب يشكل إذن الوحدة الصغرى والأسـاسـية في بنية التأليف في « بحث المطالب » ، ويكشف تأمله عن كونه حاملا لدال من دوال التجديد في الدرس النحوي عند جرمانوس ؛ إذ تقوم بنيته على الانتقال من العام إلى الأقل عمومية ومنه إلى الخاص ، فيبدأ المطلب بتعريف الموضوع أو الظاهرة ، ثم

يتلوه تقديم الشروط أو الحالات المرتبطة بالموضوع أو الظاهرة ، وفي كل منهما يتم تقديم أمثلة قليلة دائما ، ويُخْتم المطلب أحيانا بتنبيه يؤدي عددا من الوظائف المتغيرة .

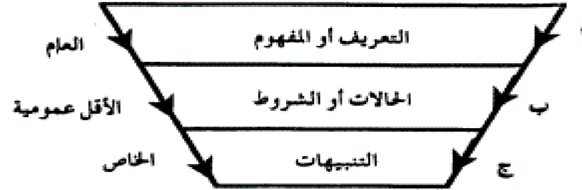
إن باب المبتدأ والخبر - على سبيل المثال - يتضمن عشرة مطالب تمضي على النحو التالي : تعريف المبتدأ والخبر ، تعريف المبتدأ والخبر وتنكيرهما ، اشتقاق الخبر وجموده ، الخبر الجملة ، ما يسد مسد الخبر ، رتبة المبتدأ والخبر ، جواز تقديم الخبر أو تأخيره ، وجوب تأخير الخبر ، تضمين المبتدأ معنى الشرط ، وقوع الخبر النكرة بعد تمام المبتدأ والخبر ، حذف كل من المبتدأ والخبر ثم حروف الفصل [٥٩] .

وتمثل هذه المطالب الموضوعات المختلفة التي يعالجها النحاة العرب القدماء في إطار درسهم لباب المبتدأ والخبر ، وإذا كان صنيع جرمانوس في هذا التنظيم يصله بمؤلفات النحاة العرب القدامى فإن إضافته الدالة تكشف عنها بنية المطلب بوصفه الوحدة الصغرى في التأليف ، وثمة علامتان فرعيتان تحملهما هذه البنية لدى جرمانوس ، وهما المنطق المتدرج ، والخلو من الاستطراد .

إن معنى المنطق المتدرج في بنية المطلب يتصل بتأسيسه على الانتقال من العام والأساسي (= تقديم المفهوم أو التعريف) ، ثم الانتقال إلى الجانب الأقل عمومية (الذي يتمثل في الشروط والحالات) ، ثم الانتهاء إلى الخاص (الذي يتمثل في تنبيه واحد أو أكثر) ، ويمكن تمثيل هذه البنية على النحو التالي :

---

(١) انظر : بحث المطالب ، مرجع سابق ، ص - ص ١٣٧ - ١٤٢ .



وتبدو هذه البنية (بنية المطلب) قائمة على منطق مختلف عن منطق تنظيم الكتاب ؛ فإذا كانت بنية الكتاب قائمة على الانتقال من الوحدات الصغرى إلى الوحدات الوسطى ، والانتهاء بالوحدات الكبرى ، فإن بنية المطلب تقوم على منطق معاكس يتصل بطبيعة تأليف المطلب ووظيفته في إطار بنية الكتاب . وبعبارة شارحة : لا يخلو أى مطلب من تعريف أو مفهوم أساسى يحكمه ، على حين تخلو بعض المطالب من تعدد الحالات (نتيجة وضعها فى بنية موضوعات النحو العربى) بينما تخلو كثير من المطالب من التنبيهات (وستتضح فى فقرة تالية الأهمية القصوى التى تحملها التنبيهات بحضورها أو بغيابها عن المطالب) .

إن متابعة هذه البنية الصغرى وتجلياتها المختلفة فى كتاب « بحث المطالب » تكشف عن اتصافها لدى جرمانوس بالصرامة التى تعنى - فيما نرى - أنها دال كاشف عن انشغال المؤلف فى صياغته لكل مستوى من مستويات هذه البنية بموضوع ذلك المستوى ، أى أنه لا يستطرد إلى

تناول التعريفات أو المسائل الجزئية أو الخلافية بين النحاة ، ولا يكثر من الشواهد أو الأمثلة .

وتعد تلك الصرامة في تنظيم المادة المدروسة وتقديمها علامة فارقة تميز « بحث المطالب » عن عدد من كتب المختصرات النحوية والصرفية في التراث العربي ، حيث يبرز الاستطراد في عرض المادة النحوية أو الصرفية ؛ ففي كتاب « الجمل في النحو » يستطرد الزجاجي في الإكثار من الأمثلة والشواهد ، كما يطيل أحيانا في عرض خلافات النحاة ومناقشتها وترجيح بعضها [٦٠] ، وأما الميداني (ت ٥١٨ هـ) فكان ينحو في كتابه « نزهة الطرف في علم الصرف » إلى الاستطراد فإذا تعرض (أثناء التصريف لقضية صرفية استطرد في تفصيلها وبيان الخلاف مرجحا ما يراه مرجحا بالشواهد والبراهين) [٦١] .

وإذا كانت البنى الصغرى في « بحث المطالب » تتصف بالصرامة فإن التنبيهات التي كان جرمانوس فرحات يقدمها في نهاية عدد من المطالب الصرفية والنحوية مثلت وسيلة تأليفية تحقق وظائف مختلفة تتصل جميعها بهدف « بحث المطالب » . وهذا ما يمكن توضيحه بتأمل عدد من « التنبيهات » في مواضعها من « المطالب » التي وردت فيها لاستكشاف وظائفها .

---

(٦٠) انظر : مقدمة تحقيق علي توفيق الحمد لكتاب الجمل في النحو ، مرجع سابق ، ص - ص ١٩ - ٢٠ .

(٦١) السيد محمد عبد المقصود درويش : مقدمة تحقيقه لكتاب الميداني : نزهة الطرف في علم الصرف ، الطبعة الأولى ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨٢ ، ص ٤١ .

فالتنبيه قد يكون وسيلة لتعميم القاعدة ، على نحو ما يبدو في نهاية مطلب « تصريف الضمير المتصل » مع الفعل الماضي ، حيث يقول جرمانوس بعد أن عرض القاعدة ومثل لها (قس على تصريف هذا المطلب كل ماض ثلاثي وغير ثلاثي ، معلوما أو مجهولا) [٦٢] .

ويستخدم التنبيه أحيانا لتقييد القاعدة العامة ؛ ففي نهاية عرضه للاسم الممنوع من الصرف بسبب العلمية وعلة أخرى يقدم تنبيهين لتقييد بعض القواعد العامة التي عرضها ، وهما (إذا كان المؤنث المعنوي ثلاثيا ساكن الوسط جاز فيه الصرف وعدمه مثل هند) و (وإذا كان العلم ثلاثيا ساكن الوسط جاز فيه الصرف وعدمه مثل نوح وشيث ولوط وسام) [٦٣] .

وفي مواضع أخرى يستخدم جرمانوس التنبيه وسيلة لبيان أنماط ظاهرة ما ، فقد أنهى تناوله لمطلب « استتار الضمير » بالتنبيه على أن (استتار الضمير جائز وواجب ، فالجائز هو وهي ، والواجب ما سوى ذلك) [٦٤] .

ويستخدم التنبيه – في سياقات أخرى – للتفريق بين أمور أو صيغ قد تلتبس كاشفا عن كيفية فك هذا الالتباس ؛ ففي نهاية تناوله لاشتقاق اسمي الفاعل والمفعول من صيغ مختلفة يقدم التنبيه التالي (يلتبس اسم الفاعل واسم المفعول في وزن تفاعل وافتعل وانفعل ، تقول متماد وممتد ومنمد ، وفيهما يعرف بالقرائن) [٦٥] .

وبعض التنبيهات لدى جرمانوس كانت وسيلة لاستكمال جانب من جوانب القاعدة العامة التي شرحها ، ففي تناوله لحذف المفعول المطلق قدم تنبيها يرى أن (كل مصدر جاء مؤكدا لعامله ، وعامله محذوف فهو منصوب

---

(٦٢) بحث المطالب ، ص ٢١ .
(٦٣) بحث المطالب ، ص ١٢٣ .
(٦٤) بحث المطالب ، ص ٢٣ .
(٦٥) بحث المطالب ، ص ٤٠ .

على أنه مفعول مطلق ، مثل أيضا ، والتقدير آضت أيضا) (٦٦) .

ويستخدم التنبيه وسيلة لتحديد الضرورات التي تباح للشاعر ، كما يظهر في نهاية درسه للاسم المنادى المفرد ، إذ يقدم تنبيها يقول فيه : (إذا اضطر الشاعر إلى تنوين المنادى العلم جاز له أن ينونه رفعا ونصبا) (٦٧) .

وقد جعل جرمانوس التنبيه أحيانا أداة لتصحيح خطأ من الأخطاء الشائعة ؛ إذ أنهى تناوله لمسألة تصريف الظرف وانصرافه بالتنبيه على أن (عند لا يدخلها من حروف الجر سوى من فقط ، وقول العامة سرت إلى عنده خطأ ، والصواب : سرت إليه) (٦٨) .

وقد وردت لدى جرمانوس تنبيهات أخرى في مواضع مختلفة من « بحث المطالب » أدت وظائف شبيهة بالوظائف التي استنبطناها من الأمثلة السابقة (٦٩) .

وإذا كان جرمانوس قد استمد مصطلح « التنبيه » من عدد من مؤلفي الكتب النحوية التراثية - كابن هشام في « مغني اللبيب » والأشموني (ت ٩٠٠ هـ) في شرحه على ألفية ابن مالك ، والصبان (ت ١٢٠٦ هـ) في حاشيته على شرح الأشموني للألفية (٧٠) ، فإن اعتماده على هذا المصطلح في تشكيل

---

(٦٦) بحث المطالب ، ص ١٦٢ .

(٦٧) بحث المطالب ، ص ١٧٣ ، وانظر أيضا : ص ١٢٤ ، حيث يقدم المؤلف التنبيه التالي : (متى أضيف الغير منصرف أو عرف بأل صرف ، ويجوز للشاعر عند الضرورة أن يصرف مالا ينصرف) .

(٦٨) بحث المطالب ، ص ١٦٩ .

(٦٩) انظر التنبيهات المقدمة في الصفحات التالية من بحث المطالب : ٢٢ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٧٠) انظر : ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق حنا الفاخوري ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٢ .
- الصبان (محمد بن علي أبو العرفان) : حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، تحقيق محمود بن الجميل ، الطبعة الأولى ، مكتبة الصفا ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص - ص ٢٧٢ - ٢٧٣ على سبيل التمثيل .

لبنية التأليفية الصغرى لا ينفصل عن سعيه إلى ضبط تلك البنية وإحكام صرامتها .

إن البنى الصغرى في كتاب « بحث المطالب » تعد - بقيامها على المنطق المتدرج واتصافها بالصرامة - دالا من دوال التجديد في التأليف في كتاب « بحث المطالب » .

ويبدو لنا أن نمط التأليف بعلاماته المتعددة في « بحث المطالب » يمثل الظاهرة الأولى والأساسية من ظواهر تجديد الدرس النحوي في هذا الكتاب « المجهول » .

(٢ / ٢) المصطلحات بوصفها علامات :

يمثل استخدام المصطلحات وتحديد دلالاتها في إطار موضوعات « بحث المطالب » ظاهرة من الظواهر الكاشفة عن تجديد الدرس النحوي لدى جرمانوس ، وإذا كان المصطلح لفظا مفردا أو عبارة مركبة ذات دلالة تتسم بالتحديد وبالوضوح [٧١] ، فإن بنيته ودلالته علامتان على « منهجية » المستخدم له وطريقته في التفكير ، وتصوره لجوانب المادة التي يعالجها في مصنفه أو في كتاباته المتخصصة ، ودال على تصوره للحدود الفاصلة بين جزئيات المادة وموضوعاتها المتشابهة ، وإشارة إلى إدراكه للصلات أو العلاقات التي تربط بين بعض موضوعات المادة وجزئياتها .

وتشير هذه الجوانب إلى أن المصطلح علامة ذات دلالات متعددة تمارس

(٧١) انظر : محمود فهمي حجازي : الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ، ص - ص ١١ - ١٢ .

حضورها وفاعليتها على أكثر من مستوى من مستويات تشكيل المادة المدروسة وضبطها .

ولقد قام الدرس النحوى لدى كل من الطهطاوى وجرمانوس فرحات على عدد كبير جدا من المصطلحات النحوية والصرفية ، وإذا كان ذلك الملمح يعود إلى طبيعة علم النحو بوصفه واحدا من أكثر العلوم التراثية اعتمادا على تقسيم العناصر وتفريعها وتحديد الجزئيات وتصنيفها – فإن طبيعة المرحلة التى ينتمى إليها كل من جرمانوس فرحات والطهطاوى قد فرضت على كل منهما أن يقيم درسه النحوى – فى جانبه الاصطلاحى – على استمداد مصطلحاته من التراث النحوى العربى ، ومن هنا لا تعد عملية رد هذه المصطلحات إلى أصولها الأولى عملية ذات جدوى كبيرة ؛ لأن طبيعة الدراسة النحوية فرضت على جرمانوس فرحات والطهطاوى إعادة استخدام المصطلحات الموروثة دائما ، لكن ما كان يستطيعان عمله هو اختيار بعض الإمكانات المتاحة ، أو تعديل بعض الإمكانات القائمة من منظور إدراكهما عدم وفاء المصطلحات القديمة بالتحديد الدقيق لهذا العنصر أو ذاك من عناصر المادة النحوية .

وسنتوقف عند بعض المصطلحات التى استخدماها لنقارن بينهما ، ونخلص فى النهاية – إلى دوال استخدام المصطلح النحوى لدى جرمانوس فرحات مقارنة بالطهطاوى ، وتنصب المقارنة على عينة « قليلة » من المصطلحات وهى : الكلمة ، والظرف ، وعلامات الاسم ، ونائب الفاعل ، وعوامل الرفع ، والمفعول لأجله ، ثم الحال .

عرف جرمانوس فرحات الكلمة فى اصطلاح النحاة بأنها (لفظ وضع

لمعنى مفرد ، فاللفظ هو الصوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية) [٧٢] بينما عرف الطهطاوى الكلمة بأنها (قول مفرد مؤلف من حروف المبانى ، التى هى حروف الهجاء ألف باء إلى آخرها) [٧٣] . وإذا كان الطهطاوى وجرمانوس يتفقان في وصف بنية الكلمة بتحديد الوحدات الصغرى التى تؤلفها ، وهى الحروف ، فإن أهمية تعريف الكلمة عند جرمانوس تتمثل فى ضمه جانب الدلالة (دلالة الكلمة) إلى تعريفها مما لا يجعل تعريفه شكليا فقط ، على العكس من تعريف الطهطاوى الذى توقف عند الجانب الشكلى ، ولم يكشف عن البعد الدلالى للكلمة - بوصفها مصطلحا نحويا - إلا فى شرحه لأقسام الكلمة [٧٤] .

وتبدو عناية جرمانوس بإبراز الدلالة بوصفها جزءا من تعريف الموضوع أو الظاهرة سمة متواترة في تعريفات أخرى كما يبدو في تعريفه للظرف بأنه (المفعول فيه ويسمى الظرف ، وهو كل اسم مكان أو زمان حدث فيه فعل وتضمن معنى) [٧٥] .

على حين يبدو الجانب الدلالى الدال على وظيفة الظرف غائبا عن تعريفه لدى الطهطاوى الذى ينص على أن (المفعول فيه هو الظرف الذى يقع فيه الفعل) [٧٦] .

وأما فى تعريف علامات الاسم فيفرق جرمانوس فرحات بين علاماته اللفظية (وهى عنده دخول لام التعريف ، ودخول حروف الجر والتنوين) وعلاماته المعنوية التى يصفها بأنها (واحدة وهى الإخبار عن الاسم نحو :

---

(٧٢) بحث المطالب ، ص ١٠٦ .
(٧٣) التحفة المكتبية ، ص ٩٥ .
(٧٤) التحفة المكتبية ، ص - ص ٩٥ - ٩٦ .
(٧٥) بحث المطالب ، ص ١٦٧ .
(٧٦) التحفة المكتبية ، ص ٢٠٦ .

قام بطرس) [٧٧] . في حين لم يقدم الطهطاوى تعريفا لهذه العلامات . وعدل عنه إلى تقديم شرح مفصل لها [٧٨] ، وهذا ما يكشف عن دقة جرمانوس فرحات في تعامله مع بعض المصطلحات مقارنة بالطهطاوى

وتبدو بعض المصطلحات لدى جرمانوس فرحات مصطلحات واضحة وقائمة على الاختصار مقارنة بمصطلحات الطهطاوى ، وهذا ما تكشف عنه مقارنة مصطلح « نائب الفاعل » لديهما ؛ فهو عند جرمانوس فرحات (ما حُذف فاعله وأقيم المفعول مقامه كقولك في : ضرب عمر زيدا – ضُرب زيدٌ) [٧٩] ، أما الطهطاوى فيعرفه بأنه (الاسم المرفوع الذى لا يذكر معه فاعله لنيابته عنه في جميع أحكامه) [٨٠] .

وتبدو بعض مصطلحات جرمانوس فرحات قائمة على الاختصار ، والشمول الذى يعنى وفاء المصطلح بكل الحالات التى تندرج في إطار الباب أو الموضوع الذى يشير إليه ذلك المصطلح ، وهذا ما يظهر من مقارنة مصطلح المفعول به لديه بنظيره لدى الطهطاوى ، فالمفعول به عند جرمانوس (هو ما وقع عليهْ فعل الفاعل إيجابا وسلبا) [٨١] ، أما الطهطاوى فيقدم التعريف التالى (المفعول به هو الذى يقع عليه فعل الفاعل) [٨٢] . ويبدو تعريف المفعول به لدى شوقى ضيف شديد الشبه بتعريفه لدى جرمانوس فرحات [٨٣] .

---

(٧٧) بحث المطالب ، ص – ص ١٠٨ .
(٧٨) التحفة المكتبية ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .
(٧٩) بحث المطالب ، ص ١٣٦ .
(٨٠) التحفة المكتبية ، ص ١٤٠ .
(٨١) بحث المطالب ، ص ١٦٢ .
(٨٢) التحفة المكتبية ، ص ١٨٩ .
(٨٣) انظر : شوقى ضيف : تجديد النحو ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ ، حيث يعرف المفعول به بانه (الاسم المنصوب الذى يقع عليه العامل إيجابا وسلبا) .

إن اتصاف عدد من مصطلحات جرمانوس فرحات بشموليتها في تحديد طبيعة الموضوع النحوي الذي يشير إليه تتضح في استخدامه لمصطلح المفعول لأجله مقارنة باستخدام الطهطاوي للمصطلح نفسه ؛ إذ بدأ جرمانوس فرحات بالإشارة إلى المصطلحين المتواترين لدى بعض النحاة لتسمية المفعول لأجله وهما المفعول له والمفعول من أجله ، ثم عرفه على النحو التالي (هو المصدر المذكور علة لحدث يشاركه في الزمان والفاعل) [٨٤] . بينما عرف الطهطاوي المفعول لأجله بأنه (هو الاسم المنصوب الذي يذكر بيانا لعلة وقوع الفعل ، فهو الغرض الذي لأجله يكون الإقدام على الفعل) [٨٥]، ثم أتبع ذلك التعريف بالوقوف عند شروط المفعول لأجله ، بينما اتسم تعريف فرحات بقدرته على ضم الشروط إلى المصطلح ذاته ، فكان المصطلح دالا ودقيقا في آن ، وقد تشابه مصطلح المفعول لأجله لدى كل من محمد عيد وشوقي ضيف مع مثيله لدى فرحات [٨٦] .

وإذا كان جرمانوس فرحات قد عرف الحال بأنه (نكرة مشتقة واقعة بعد تمام الكلام تبين هيئة الفاعل والمفعول أو المجرور) [٨٧] ، فإن الطهطاوي عرفه على النحو التالي (الحال : هو الاسم المنصوب المفسر لما انبهم من الهيئات أي الصفات ، فهو لبيان هيئة الفاعل في حال وقوع الفعل منه أو هيئة المفعول في حال وقوع الفعل به ، فلا يفسر إلا ما هو فاعل أو مفعول به ،

---

(٨٤) بحث المطالب ، ص ١٦٧ .

(٨٥) التحفة المكتبية ، ص ٢٠٦ .

(٨٦) يعرف المفعول لأجله عند محمد عيد على النحو التالي (كل مصدر ذكر علة لحدث سابق واتحد مع هذا الحدث في الزمان والفاعل) النحو المصفى ص ١٤٤ ، بينما عرفه شوقي ضيف بأنه مصدر منصوب يلي جملة لبيان سببها وعلتها) تجديد النحو ص ١٧٧ ، ويشترك تعريف ضيف في جزئه الأول مع تعريف جرمانوس فرحات ، كما يشترك معه في الإيجاز ، وفيما عدا ذلك [illegible] المصطلح لدى جرمانوس أكثر شمولا منه لدى ضيف .

(٨٧) بحث المطالب ص – ص ١٨٠ – ١٨١ .

في اللفظ أو المعنى وهو ما يقع في جواب : كيف ؟) [٨٨] .

إن وضع مصطلحي الطهطاوي وفرحات بإزاء بعضهما البعض يكشف عن اتصاف مصطلح جرمانوس بالدقة والاختصار معا [٨٩] على حين يمكن وصف هذا المصطلح لدى الطهطاوي باضطراب بنيته الناتجة عن تحوله إلى مصطلح شارح لا واصف للحال .

إن درس المصطلحات السابقة لدى كل من جرمانوس فرحات ورفاعة الطهطاوي يكشف عن عدد من دوال استخدام المصطلح - بوصفه علامة - ذات دلالات متعددة في إطار « منهجية » التأليف وطريقة تفكير المؤلف في مادته الأساسية ، وأبرز هذه الدوال : اتكاء فرحات على دور الدلالة في صياغته للمصطلحات النحوية ، وتدقيقه في بناء عدد من المصطلحات ، وسعيه إلى إيجاز بنية المصطلحات مع وفائها بالدلالة على ما تشير إليه ، وسعيه إلى أن يكون المصطلح شاملا لمختلف الحالات أو الأنماط التي تقع في دائرته .

وإذا كانت هذه النتائج قد اسْتُنْبطت من تحليل عينة من مصطلحات فرحات ومقارنتها بنظرائها لدى الطهطاوي ، فإن هذا لا ينفي ما يلاحظه الدارس / القارئ من « تفوق » الطهطاوي على جرمانوس في استخدامه لعدد من المصطلحات الأخرى [٩٠] ، مما يعني أن الدراسة التفصيلية لمصطلحات

---

(٨٨) التحفة المكتبية ، ص ٢١٥ ، وهناك خطآن مطبعيان في الأصل ، فكلمة « أي » تجدها « الهر » وعبارة « في حال وقوع الفعل به » تجدها « في حالة وقوع فقعل به » .

(٨٩) انظر تعريف الحال لدى كل من محمد عيد ، وشوقي ضيف في كتابيهما : النحو المصفى ص ٤٥٤ ، وتجديد النحو ص ١٨٢ .

(٩٠) انظر على سبيل المثال مصطلح الإعراب لدى الطهطاوي وقارنه بنظيره لدى جرمانوس ، التحفة المكتبية ص ١١١ ، وبحث المطالب ص ١١٩ .

الدرس النحوى لدى فرحات والطهطاوى تظل المحك الدقيق لتحديد طبيعة الاستخدام المصطلحي لديهما . ومع هذا تظل دلالات الاستخدام المصطلحي لدى جرمانوس - في ضوء النماذج التي توقفنا عندها - مشيرة إلى كونها ظاهرة من ظواهر تجديد الدرس النحوى لديه ، إذ تكشف عن سعي فرحات المؤلف النحوى إلى ضبط مصطلحات العلم الذى يكتب في مجاله ، مما يعد - بدوره - دالا على تصور المؤلف لذلك العلم تصورا منضبطا .

إن ضبط المصطلحات المستخدمة في إطار علم النحو يمثل أساسا من أسس تجديد النحو لدى شوقي ضيف صاغه في دعوته إلى وضع ضوابط وتعريفات دقيقة [٩١] . وقد تتيح لنا النماذج التي توقفنا عندها من « بحث المطالب » إمكانية الزعم بأن ذلك الأساس كان ماثلا - بصورة ما - في ذهن جرمانوس فرحات ، وإن توقفت ماهيته على طبيعة العصر الذى ينتمي إليه المؤلف .

(٣ / ٢) الإيجاز في تقديم المادة النحوية والصرفية :

تمثل ظاهرة الإيجاز في اختيار عناصر المادة الصرفية أو النحوية التي اصطفاها جرمانوس من كتب التراث النحوى العربي علامة على منحاه التجديدي في الدرس النحوى ، وإذا كان جرمانوس قد اكتفى في تقديمه الموجز لكتابه بالإشارة إلى أنه قد أثبت فيه ما يراه لازما لطلابه ونبذ ما يراه غريبا عنهم [٩٢] ؛ أى غير مفيد لهم ، فإن هذا الوصف المختصر الذى قدمه يمثل

---

(٩١) انظر : شوقي ضيف : تجديد النحو ص - ص ٣٠ - ٣٤ ، حيث يعرض المؤلف هذا المبدأ ويطبقه على عدد من موضوعات النحو كالمفعول المطلق والمفعول معه والحال .

(٩٢) انظر : مقدمة بحث المطالب ص ٦ .

مقوما من مقومات التجديد ، ولكن الاختصار الشديد الذى صاغ به جرمانوس مقومه التجديدى يدفع قارئ الكتاب إلى تلمس فاعلية الإيجاز فى البنية الداخلية لهذا الكتاب . ونرى أن الإيجاز علامة من العلامات الدالة على تجديد الدرس النحوى عند جرمانوس ، وتحمل هذه العلامة دلالتين ، تتصل أولاهما بإشارتها إلى طبيعة اختيارات جرمانوس من المادة الضخمة التى أتاحتها له كتب التراث النحوى ، بينما تتصل ثانيتهما بالإشارة إلى إدراك جرمانوس المؤلف الحاجات « الدقيقة » للطلاب أو المتلقين الذين توجه إليهم بكتابه .

إن فاعلية الإيجاز تتجلى بوصفه ، من ناحية ، آلية اعتمدها جرمانوس فرحات فى تعامله مع المصادر النحوية والصرفية السابقة عليه ، وبوصفه علامة تقود القارئ إلى تتبعها واكتشاف طرائق عملها فى « بحث المطالب » من ناحية أخرى .

ويمكن أن يتلمس القارئ فاعلية الإيجاز بوصفه آلية وعلامة معا فى كل الموضوعات التى تناولها جرمانوس فرحات فى « بحث المطالب » ، ويمكن اكتشاف طبيعة هذه الفاعلية ومداها من تحليل باب « التصغير » فى « بحث المطالب » مقارنا بكتب المختصرات الصرفية والنحوية ، وبمحاولة شوقى ضيف فى « تيسير النحو التعليمى » .

ومن اللافت للانتباه ، بداية ، أن عدداً من كتب المختصرات الصرفية فى التراث لم يتناول مؤلفوها مسألة التصغير ، وهذا ما يظهر فى كتابى عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) « العمد فى التصريف » و « المفتاح فى

التصريف » وفي كتاب الميداني « نزهة الطرف في علم الصرف » (٩٣) ، بينما مثل « باب التصغير » واحدا من الأبواب الصرفية الثلاثة التي عالجها ابن جني في كتابه « اللمع » على الرغم من أن كتابه واحد من كتب المختصرات النحوية ، وقد عرض ابن جني لقواعد التصغير مختصرة وقدم له أمثلة كثيرة يدخل معظمها فيما يراه شوقي ضيف واجب الإهمال في الكتب التعليمية (٩٤) .

وإذا كان ابن هشام (ت ٦٧١ هـ) قد تناول التصغير في مختصره الصرفي « نزهة الطرف في علم الصرف » فإنه قد قدم فيه أهم قواعد التصغير بإيجاز شديد يصل إلى الإخلال بها أحيانا ، كما قدم كثيرا من الأمثلة التطبيقية دون تحليلها أو التعليق عليها (٩٥) .

وقد عرض جرمانوس للتصغير ومسائله في عشرة مطالب بدأها بتعريف التصغير ، ثم تناول تصغير الاسم ، وتصغير الاسم المعتل بالقلب ، وتصغير الاسم المعتل بالحذف ، وتصغير الاسم الواقع فيه بعد ياء التصغير حرف علة ،

---

(٩٣) انظر الكتب التالية :
عبد القاهر الجرجاني : كتاب المفتاح في التصريف ، تحقيق وتقديم علي توفيق الحمد ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٧
عبد القاهر الجرجاني : كتاب « العمد » في التصريف – تحقيق وتقديم وتعليق البدراوي زهران ، طبعة دار المعارف ١٩٨٨ .
الميداني (أحمد بن محمد) : نزهة الطرف في علم الصرف ، تحقيق السيد محمد عبد المقصود ، مرجع سابق .

(٩٤) انظر ابن جني : اللمع في العربية ، ص – ص ٢٩٠ – ٣٠٤ . وانظر آراء شوقي ضيف حول مسألة التصغير وكيفية معالجتها في كتب النحو التعليمي في كتابه تيسير النحو التعليمي : مرجع سابق ، ص – ص ١٤٧ – ١٤٩ .

(٩٥) انظر ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري) : نزهة الطرف في علم الصرف ، تحقيق ودراسة أحمد عبد المجيد هريدي ، طبعة مكتبة الزهراء ، ١٩٩٠ ، ص – ص ١١٤ – ١١٩ .

وتصغير المزيد الذى يشمل تصغير المؤنث ، وتصغير ما فيه حرف مد ، ثم تصغير المزيد الذى لا يتضمن حرف مد ، وتصغير الجمع ، فتصغير الاسم المبنى [٩٦] .

ويمكن مقارنة ذلك الباب لدى جرمانوس بمقترحات شوقى ضيف فى كتابه « تيسير النحو التعليمى » وتكشف هذه المقارنة عن النتائج التالية :

أ – إذا كان شوقى ضيف قد دعا إلى تجاهل صيغتى تصغير المثنى وتصغير جمع المؤنث السالم فى كتب النحو التعليمى [٩٧] فمن الملاحظ أن جرمانوس قد تجاهل تماما هاتين الصيغتين من صيغ التصغير اللتين قررهما أصحاب المطولات وبعض أصحاب المختصرات الصرفية فى التراث العربى .

وإذا كان شوقى ضيف قد علل دعوته إلى حذف هاتين الصيغتين وغيرهما من كتب النحو التعليمى بضرورة تقديم المستخدم فقط من صيغ التصغير ، فإن تأمل صنيع جرمانوس يشير إلى إمكانية القول إن هذا المبدأ كان ماثلا فى ذهن جرمانوس وموجها له أيضا [٩٨] .

ب – حدد جرمانوس فرحات ثلاثة أنماط لتصغير الاسم المعتل بالحذف وهى [الأول متى لم يعّوض عن المحذوف رُد فى التصغير ما حُذف منه نحو يدى ودمى وأخى وأبى (....) الثانى متى عُوّض عن المحذوف بهمزة أو تاء مربوطة حذف فى التصغير ما عوض عنه ورد المحذوف (...) الثالث

---

(٩٦) انظر : بحث المطالب : مرجع سابق ، ص – ص ٨٤ – ٨٨ .
(٩٧) انظر شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .
(٩٨) انظر : شوقى ضيف : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، ويجب أن نضيف هنا ما يقوله ضيف من أنه يكفى أن تذكر للناشئة (تلك الأسماء المتداولة فى أمثلة التصغير وتعرض عليهم دون وضع قاعدة لها) ص ١٤٧ .

متى عوض عن المحذوف بتاء مجرورة رد المحذوف عند التصغير وأبدلت التاء المجرورة بمربوطة نحو خية وبنية تصغير بنت وأخت (.....) وشاذ هنيهة تصغير هنة] [99] .

وقرن صنيع جرمانوس فرحات في هذا المطلب بصنيع شوقي ضيف يكشف عن تماثل شديد بينهما ، فقد دعا شوقي ضيف إلى إهمال النماذج الأخرى للتصغير التي قدمها الصرفيون القدامى في هذا الجانب ، وهذه الصيغ هي :

– تصغير الماضي المهموز في حالة الأمر (خذ ←—— أخيذ) .

– تصغير الاسم المؤنث معتل الفاء (وصلة ←—— وُصَيلة ، عِدَة وُعَيْدة) .

– تصغير الحروف الثنائية (هل ←—— هُلَيل) .

– تصغير بعض الأفعال (يرى ←—— يَرْيَاى) [100] .

ومن الملاحظ أن جرمانوس فرحات قد تجاهل تماما هذه الصيغ الأربع التي دعا ضيف – بعده بما يقل قليلا عن ثلاثة قرون – إلى استبعادها من دائرة كتب تعليم الناشئة ، وقد وصفها ضيف بالقول (إن هذه الصور الأربعة للتصغير من تخيلات النحاة ، ولذلك يجب أن تُهْمل في تعليم الناشئة) [101] .

---

(٩٩) جرمانوس فرحات : بحث المطالب ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .
(١٠٠) انظر : شوقي ضيف : تيسير النحو التعليمي ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .
(١٠١) المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

ويمكن الزعم ، استنادا إلى المقارنة السابقة ، أن هذا المبدأ الذى سعى ضيف إلى تأصيله من أجل تعيين صيغ التصغير التى تُقدَّم فى كتب النحو التعليمى - كان واضحا لدى جرمانوس فرحات على الرغم من عدم تصريحه به .

ج - الاختلاف الأساسى بين جرمانوس وضيف فى صيغ التصغير يظهر فى عدد من الأمثلة الواردة فى مسألة تصغير الاسم المعتل بالقلب حيث أبقى جرمانوس بعض الأمثلة التى رأى ضيف - فيما بعد - ضرورة استبعادها من دائرة النحو التعليمى (مثل باب وناب وغيرها) [١٠٢] ، كما يظهر اختلافهما فى مسألة تصغير بعض أسماء الإشارة والأسماء الموصولة التى أثبتها جرمانوس بينما دعا ضيف إلى تجاهلها [١٠٣] .

ولعل مرد الاختلاف بين جرمانوس وضيف حول الإبقاء على بعض صيغ التصغير أو حذفها من كتب النحو التعليمى يعود إلى طبيعة أهداف كل منهما ؛ إذ كان شوقى ضيف يستند فى دعوته إلى حذف بعض صيغ التصغير - إلى أنها (لا تجرى فى لغتنا الأدبية ولا فى لغتنا اليومية) ومن ثم دعا إلى حذف قواعدها من كتب تعليم الناشئة لأن هذه الصيغ والقواعد معا لا تفيدان الناشئة أى فائدة فى النطق [١٠٤] . فى حين أبقى جرمانوس على عدد من صيغ التصغير قليلة الاستخدام لأنه كان يتوجه بكتابه إلى مَنْ يفترض أنهم يتصلون بالتراث العربى الوسيط ، مما يجعلهم معرضين لمقابلة هذه

(١٠٢) انظر : شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .
(١٠٣) انظر : بحث المطالب ، ص ٨٥ ، ٨٨ حيث يقدم جرمانوس الصيغ المشار إليها فى المتن .
(١٠٤) انظر : شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

الصيغ في كتب ذلك التراث ، ولعل من اللافت للانتباه أن جرمانوس نفسه قد استخدم كل صيغ التصغير ، حتى التي استبعدها من « بحث المطالب » في قصيدة من ديوانه عدتها عشرون بيتا [١٠٥] .

إن التعامل مع الإيجاز بوصفه آلية وعلامة دالة في كتاب « بحث المطالب » قد كشف عن دورها في بيان جانب من جوانب تجديد الدرس النحوي لدى جرمانوس فرحات .

ولا تقتصر فاعلية الإيجاز في مؤلفات جرمانوس فرحات النحوية واللغوية على « بحث المطالب » فقط بل تتجلى بوضوح في كتبه الأخرى ؛ فكما بيَّنا من قبل اعتمد جرمانوس على هذه الآلية في كتابه « الأجوبة الجلية في الأصول النحوية » كما اعتمد عليها في معجمه « إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » ؛ إذ تعمد تجاهل عدد كبير من الكلمات التي رأى أنها ليست كثيرة الدوران والتداول بين مستخدمي العربية في عصره [١٠٦] .

(٤ / ٢) بنية تناول الموضوع النحوي :

تتمثل الظاهرة التالية المبينة عن جانب من جوانب تجديد الدرس النحوي لدى جرمانوس فرحات في ظاهرة بنية تنظيم تناول الموضوع النحوي تنظيما وافيا بتقديم الجوانب الأساسية لذلك الموضوع ، واختيار عدد من جزئياته

---

(١٠٥) انظر : ديوان جرمانوس فرحات ، تعليق وتصحيح سعيد الخوري الشرتوني ، الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٤ ، ص - ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(١٠٦) انظر : جرمانوس فرحات : إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب ، مرجع سابق ، ص ٣ من مقدمة رشيد الدحداح .

الدالة ، مع التمثيل لها بعدد محدود من الأمثلة . وتبدو هذه الظاهرة ظاهرة مركبة تقوم على توظيف المؤلف عددا من الآليات والعلامات التى يأتى فى مقدمتها المصطلح النحوى ذو الصياغة المضبوطة ، والإيجاز بوصفه أداة ترتبط باختيارات المؤلف من المصادر النحوية التى يعتمد عليها .

وتحمل هذه الظاهرة التأليفية عدة دلالات ستتبدى عبر مقارنة « بحث المطالب » بعدد من كتب المختصرات النحوية ، وستنصب المقارنة على عدد من الموضوعات النحوية وهي : البدل ، والتمييز والتوكيد بوصفها نماذج دالة على طريقة تناول هؤلاء المؤلفين وفرحات لغيرها من الموضوعات النحوية .

فحين تناول فرحات البدل فإنه انطلق من تعريفه بأنه (التابع المقصود بالحكم بلا واسطة) [١٠٧] ، ثم قدم أحكامه المختلفة وتلاها بتناول متعلقاته ، ووازى هذه الإجراءات تقديمه أمثلة مختلفة تمثل لكل هذه الجوانب .

وتختلف بنية تنظيم الموضوع النحوى لديه عن طرائق أصحاب المختصرات النحوية التراثية فى تناول البدل ؛ فابن جنى أخذ فى « اللمع » يتناول البدل دون أن يعرفه ، وإنما بدأ بتحديد وظائفه تحديدا موجزا واصفا البدل بأنه (يجرى مجرى التوكيد فى التحقيق والتشديد ، ومجرى الوصف فى الإيضاح والتخصيص) [١٠٨] ، ثم تناول أضربه الأربعة ومثّل لها بأمثلة من الأمثلة المتواترة لدى النحاة ، ونموذج من الشعر وثلاثة شواهد قرآنية [١٠٩] .

---

(١٠٧) بحث المطالب ، ص ٢٠١ .
(١٠٨) ابن جنى : اللمع ، مرجع سابق ، ص ١٧٢ .
(١٠٩) انظر المرجع السابق ، ص - ص ١٧٣ - ١٧٦ .

أما الزجاجي في « الجمل » فقد تجاهل تعريف البدل وركز تناوله على عرض أضربه الأربعة ممثلا لها بأمثلة وشواهد مختلفة من تعبيرات متكررة لدى النحاة وشواهد قرآنية وشعرية (١١٠) .

ويتشابه الجزولي (ت ٦٠٧ هـ) في « المقدمة الجزولية » مع الزجاجي وابن جني في تجاهل تقديم تعريف للبدل والاكتفاء بعرض قواعده الأساسية عرضا بالغ الإيجاز (١١١) ، كما تتواتر الظاهرة ذاتها في كتاب عبد القاهر الجرجاني « الجمل في النحو » (١١٢) .

فإذا قرن الدارس النماذج الأربعة السابقة بالرملي (ت ٩٧٣) وجد أنه في شرحه للأجرومية ، اهتم بتقديم المعنيين اللغوي والاصطلاحي للبدل ، ثم انتقل إلى عرض مختلف قواعده مع التمثيل لها (١١٣) .

وإذا كان ذلك القران « السابق » يكشف عن تنوع ما في طريقة تنظيم مادة الموضوع النحوي (ونموذجه هنا البدل) في كتب المختصرات النحوية ، فإن سيادة نمط تأليف ذي بنية ليست منضبطة تماما في تناول كتب المختصرات النحوية للبدل ، يشير إلى إمكانية افتراض أن مثل هذه البنية كانت

---

(١١٠) انظر الزجاجي : كتاب الجمل ، مرجع سابق ، ص - ص ٢٣ - ٢٦ .

(١١١) انظر الجزولي (عيسى بن عبد العزيز) : المقدمة الجزولية في النحو ، تحقيق وشرح شعبان عبد الوهاب ، الطبعة الأولى ، أم القرى ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص - ص ٧٦ - ٧٧ .

(١١٢) انظر : عبد القاهر الجرجاني : الجمل في النحو ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ ، حيث يقدم أضرب البدل الأربعة دون تعريفه ، ثم يمثل للبدل ؛ والملاحظ أن تناوله للبدل قد احتل ستة أسطر فقط .

(١١٣) انظر : الرملي (أحمد بن علي) : شرح الأجرومية ، تحقيق ودراسة علي موسى الشوملي ، دار أمية للنشر والتوزيع ، الرياض ، بدون تاريخ ، ص - ص ٢١٢ - ٢١٧ .

عائقا يمنع هذه الكتب من أن تؤدى وظيفتها المثلى فى المجتمع العربى الوسيط ، فى حين يبدو تنظيم جرمانوس تناوله للبدل دالا على أمرين : السعى إلى استكمال بعض أوجه « القصور » فى كتب المختصرات النحوية التراثية وذلك عن طريق نقل التعريف (= تعريف البدل) من كتب المطولات النحوية ، فالتعريف الذى قدمه جرمانوس هو نفسه التعريف الذى وصفه محمد عيد بأن كتب النحو تكاد تتفق عليه (١١٤) .

ويفضى ذلك السعى إلى دال آخر يتصل بإحكام جرمانوس بنية تناول الموضوع النحوى تناولا موجزا دون الإخلال بتقديم الجوانب الأساسية فيه .

وتتكشف أهمية طريقة بناء الموضوع من مقارنة تناول جرمانوس فرحات لموضوع التمييز بتناول السابقين عليه من أصحاب كتب المختصرات النحوية ، فالزجاجي لم يقدم فى « الجمل » تعريفا للتمييز ، بل بدأ بتقديم عدد من صفاته التي أوضحتها عبارته عن أن (التمييز لا يكون إلا نكرة ، ولا يكون إلا منصوبا ، ولا يتقدم على المميز منه) (١١٥) ، ثم قدم أمثلة مختلفة لعدد من المواضع التى يرد فيها التمييز .

وأما عبد القاهر الجرجانى فلم ينطلق فى « الجمل » من تقديم مصطلح التمييز ، بل انطلق من الحديث عن ضربيه ، مطيلا الوقوف - فى حدود كون كتابه واحدا من كتب المختصرات - أمام الضرب الثاني الذى يقول عنه إنه يأتى بعد تمام الاسم (ومعنى تمام الاسم أن يكون ممتنعا عن الإضافة) (١١٦) ، ثم

(١١٤) انظر : محمد عيد : النحو المصفى ، مرجع سابق ، ص ٦٢٥ .
(١١٥) الزجاجي : الجمل ، ص ٢٤٢ .
(١١٦) عبد القاهر الجرجاني : الجمل ، ص ١٠٤ .

عرض أوجه امتناع الاسم عن الإضافة وتوقف أمام تمييز « كم » .

ورغم أن ابن جنى قد بدأ تناوله للتمييز – فى « اللمع » – بتقديم تعريفه على النحو التالى : التمييز هو (تخليص الأجناس بعضها من بعض ، ولفظ المميز اسم نكرة ، يأتى بعد الكلام التام يراد به تبيين الجنس ، وأكثر ما يأتى بعد الأعداد والمقادير)[١١٧] ، رغم هذا فإن العبارة الأولى فى هذا التعريف (تخليص الأجناس بعضها من بعض) تبدو عبارة قريبة من الغموض[١١٨] . مما يتناقض مع شرط من شروط صياغة المصطلح ، يتمثل فى ضرورة اتصافه بالوضوح فى دلالته على ما يشير إليه . ثم أخذ ابن جنى يقدم أمثلة مختلفة للمواضع التى يرد فيها التمييز بعد الأعداد والمقادير ، ثم قدم عددا من الصيغ المحفوظة أو العبارات المتداولة التى يستخدم فيها التمييز .

ولعل النماذج السابقة تتيح إمكانية القول بأن أصحاب كتب المختصرات النحوية التراثية لم يستطيعوا فى تناولهم لبعض الموضوعات النحوية أن يلتزموا بطريقة « منضبطة » فى عرض المادة النحوية ، مما قد يباعد بين هذه الكتب وتحقيقها وظائفها التعليمية .

وأما صاحب « بحث المطالب » فقد عرف التمييز على النحو التالى (هو

(١١٧) ابن جنى : اللمع ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .
(١١٨) انظر هامش رقم (٥) من الصفحة ذاتها حيث يقدم المحقق تعليقا يحاول فيه أن يقرب تعريف ابن جنى للتمييز من تعريف أبى على الفارسى ، مما يشير فيما نرى إلى غموض تعريف ابن جنى ، بدليل أن المحقق قد بدأ بوصفه بأنه (ليس بغريب) رغبة فى نفى غموضه .

اسم نكرة جامدة مفسرة ما انبهم من الذوات ، بمعنى من خلافا للحال لأنه نكرة مشتقة مفسرة ما انبهم من الصفات ، فالتمييز إذن قسمان : الأول ما يبين إبهام اسم مفرد نحو رطل زيتا ، والثاني ما يبين إجمال نسبة نحو طاب زيد نفسا) (١١٩) ، ثم تناول أقسامه ، ومثّل لها بأمثلة قليلة .

ويكشف النظر إلى التعريف السابق عن أن جرمانوس قد استمد ذلك التعريف من كتب المطولات النحوية ، معدلا بذلك في جانب من جوانب « القصور » التي تجلت في كتب المختصرات النحوية السابقة عليه ، ثم لجأ إلى آلية المقابلة بين التمييز والحال لمزيل أي التباس قد يستشعره القارئ / الطالب بينهما ، ولذا يمكن وصف عبارته التي يميز فيها بين الحال والتمييز بأنها عبارة شارحة .

وإذا كان ضم قسمي التمييز إلى تعريفه عند جرمانوس قد وسع من حد التمييز ، فإنه قد أدى إلى إطالة التعريف ، ولذا يبدو تعريف ابن هشام للتمييز أكثر إيجازا مع وفائه بالدلالة (١٢٠) ، بينما يبدو تعريف شوقي ضيف للتمييز دقيقا وشاملا وموجزا في آن واحد ، فالتمييز عنده (اسم منصوب يزيل إبهاما في اسم آخر أو صفة أو فعل) (١٢١) ، وقد أعقب تعريفه بتحديده المواضع العشرة التي يرد فيها التمييز وتمثيله لها بأمثلة مختلفة .

---

(١١٩) بحث المطالب ، ص ١٨٣ .

(١٢٠) انظر : محمد عيد : النحو المصفى ، ص ٤٧٦ ، حيث ينقل تعريف ابن هشام الذي يحدد التمييز بأنه (اسم نكرة فضلة جامد يرفع إبهام اسم أو إجمال نسبة) .

(١٢١) شوقي ضيف : تيسير النحو التعليمي ، ص ١٢٧ .

ومعظم النتائج التى اتضحت من مقارنة « البدل » و « التمييز » عند جرمانوس فرحات بنظيريهما عند أصحاب كتب المختصرات النحوية تنطبق أيضا على تناوله وتناولهم للتوكيد (١٢٢) .

إن النتيجة الأساسية التى يمكن أن ننتهى إليها من دراسة المثالين السابقين تشير إلى سعى جرمانوس فرحات إلى تنظيم تناوله للموضوع النحوى « الواحد » فى بنية موجزة تفى بالجوانب الأساسية له ، مع التمثيل بأمثلة مختلفة ، مما يعنى ، من ناحية ، أن الإيجاز لم يكن عائقا له أمام ضبط بنية تناول الموضوع ، ويشير من ناحية ثانية ، إلى سعى المؤلف إلى الإفادة من كتب المطولات النحوية فى تعديل بعض جوانب « القصور » فى كتب المختصرات النحوية .

وإذا كانت ظاهرة بنية تنظيم تناول الموضوع النحوى ظاهرة مركبة ، فإنها دالة فى الوقت نفسه علي جانب من جوانب تجديد الدرس النحوى لدى جرمانوس فرحات .

(٥ / ٢) الأمثلة : دورها العلامى ، أنماطها ، دلالاتها :

تعد ظاهرة الأمثلة التى اعتمد عليها صاحب « بحث المطالب » فى التمثيل للظواهر النحوية والصرفية دالا من الدوال الكاشفة عن تجديد الدرس

---

(١٢٢) انظر تناول هؤلاء النحاة للتوكيد فى المواضع التالية ، وقارنه بتناول جرمانوس فرحات (ص - ص ١٩٩ - ٢٠٠ من « بحث المطالب ») :
الزجاجى : الجمل ص ٢١ ، ابن جنى : اللمع ص - ص ١٦٩ - ١٧٠ ، عبد القاهر الجرجانى : الجمل ص - ص ٩٧ - ٩٨ ، الجزولى : المقدمة الجزولية ص - ص ٧٣ - ٧٥ ، الرملى : شرح الأجرومية ص - ص ٢٠٧ - ٢١١ .

النحوى لديه ، واتصال ذلك التجديد - فى جانب من جوانبه بالفئة الأساسية التى توجه المؤلف بكتابه إليها ، دون أن ينفى ذلك إمكانية تلقى هذا الكتاب فى إطار دوائر أخرى من المتلقين من خارج تلك الفئة .

ويمكن التعامل مع الأمثلة التى اعتمدها فرحات من منظور علامى يرى فى المثال أو الشاهدالذى يمثل به النحوى علامة من العلامات الدالة فى إطار بنية التأليف وإمكانات التلقى ، ومن هذ المنظور يمكن التمييز بين نمطين من الأمثلة فى كتاب « بحث المطالب » : يتمثل أولهما فى الأمثلة التراثية أى تلك الأمثلة المتواترة والكثيرة الدوران فى كتب النحاة العرب فى العصور الوسطى ، على حين يتمثل ثانيهما فى تلك الأمثلة التى استمدها المؤلف من مصادر ثقافته المسيحية ، وهى تنقسم بدورها إلى قسمين ، أحدهما يشكل الأمثلة المسيحية المباشرة ، بمعنى الأمثلة التى استمدها المؤلف من الترجمة العربية للإنجيل وكان ينص دائما على مصدرها ذاك ، بينما يمثل الآخر الأمثلة ذات الصبغة المسيحية ، أى هذه الأمثلة التى يستخدم فيها المؤلف عددا من أسماء الأعلام الشائعة لدى الطوائف المسيحية مثل (بطرس ، مريم ، لوقا) ويكثر المؤلف من وضع اسم العلم (بطرس) فى كثير من أمثلته ، وكأنه يقابل به ترداد اسم العلم (زيد) عند النحاة العرب القروسطيين .

ويمكن استكشاف طبيعة دلالات نمطى الأمثلة فى كتاب بحث المطالب وفق عدد من المحددات الأساسية وهى :

أ - المثال الذى نتوقف عنده ليس مجرد كلمة مفردة ، بل هو جملة أو عبارة ، وهذا يعنى ضرورة استبعاد معظم الأفعال لأنها تخلو - إلا قليلا - من الدلالات المذهبية .

ب - ضرورة استبعاد عدد كبير من العبارات والجمل التى استخدمها فرحات في أمثلته ، من دائرة هذا التصنيف لأنها لا تحمل دلالات مذهبية مسيحية فقط أو إسلامية فقط ، أو لأنها ذات مضامين عامة . ومن هذه الأمثلة : رجيل حاضر ، الموت عندك ، ليس هالك المؤمنان ، ليس هالك المؤمنون ، الله غفور رحيم ، آدم أبونا ، الذى يأتينى فله درهم ، لعمرك لأفعلن ، زرتك حتى لا تعتب على ، زرتك لئلا تغتاظ ، إن تكسل تخسر ، ومن يطلب يجد [١٢٣] .

ج - يتم الرمز للأمثلة التراثية بالحرف (ألف) ونرمز إلى الأمثلة المستمدة من الإنجيل بالحرف (باء) وإلى الأمثلة ذات الصبغة المسيحية بالحرف (جيم) .

د - اختيار عشرة موضوعات من موضوعات « بحث المطالب » بطريقة أقرب ما تكون إلى (العشوائية) حتى تكون نتيجة الاختيار معبرة عن طبيعة المادة المختارة ، والأبواب التى تم اختيارها هى أبواب اللفظ المفيد المركب ، وعلامات الاسم والاسم الموصول ، والفاعل ، ونائب الفاعل والمبتدأ والخبر ، والتنازع والاشتغال ، وأفعال المقاربة ، ثم إعراب الفعل [١٢٤] .

هـ - يتم تصنيف نمطى الأمثلة وفقا للمحددين الأول والثانى من هذه المحددات ويتم إحصاء مجموع الأمثلة فى الموضوع الواحد ثم بيان عدد أمثلة كل نمط فى هذا الموضوع ، ثم بيان النسبتين العددية والمئوية لمجموعتى (باء) و (جيم) إزاء بعضهما ، ثم هما معا إزاء المجموعة (أ) .

---

(١٢٣) انظر هذه الأمثلة فى الصفحات التالية فى « بحث المطالب » :
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ - ١٤٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ - ٢١٠ وغيرها من الصفحات .

(١٢٤) انظر هذه الأمثلة فى الصفحات التالية فى « بحث المطالب » :
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣- ١١٥ ، ١٣٢ - ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٢

و - تستخرج نتائج الإحصاءات والمقارنات ، ثم يتم تفسيرها واستنباط الدلالات التي تنطوى عليها فيما يتعلق بمدى انتشار بحث المطالب ، وربط هذه الدلالات ببعض الظواهر التاريخية الكاشفة عن حدود انتشار هذا الكتاب وتداوله مقارنة بانتشار كتاب « التحفة المكتبية » وتداوله .

وقد وضعنا هذه الإحصاءات في ملحق بهذه الدراسة أسميناه ملحق إحصاء أنماط الأمثلة في الموضوعات المختارة [١٢٥] ، وأفدنا منها في الجداول المستخدمة في هذه الفقرة .

جدول(٣) : النسبتان : العددية والمئوية للنمط (أ) مقارنة بالنمطين (ب) و (ج)

م	الموضوع	عدد الأمثلة	عدد الشواهد التراثية (أ)	عدد شواهد الثقافة المسيحية (ب.ج)	النسبة المئوية لشواهد الثقافة المسيحية مقارنة بعدد شواهد الموضوع
١	اللفظ المفيد المركب	٥	صفر	٥	٪١٠٠
٢	علامات الاسم	٧	٣	٤	٪٦٨
٣	الاسم الموصول	٦	٤	اثنان	٪٣٣
٤	الفاعل	٣٢	١٥	١٧	٪٥٥
٥	التنازع	١٢	١٢	صفر	صفر
٦	نائب الفاعل	٩	٨	واحد	٪١١
٧	المبتدأ والخبر	٥٧	١٧	٤٠	٪٧٠
٨	الاشتغال	١٢	١٢	صفر	صفر
٩	أفعال المقاربة	١٣	١٣	صفر	صفر
١٠	إعراب الفعل	٣١	صفر	٣١	٪١٠٠

(١٢٥) انظر الملحق .

يكشف الجدول السابق عن عدد من النتائج هي :

أ - خلو عدد من الأبواب من الأمثلة المستمدة من الثقافة المسيحية ، خلوًا تامًا ، وهى أبواب التنازع والاشتغال ، وأفعال المقاربة .

ب - تعتمد بعض الأبواب على عدد قليل جدا أو قليل من الأمثلة المستمدة من الثقافة المسيحية ، وهذا ما يتضح في باب نائب الفاعل الذى تعتمد أمثلته على ١١٪ فقط منها ، وفى باب الاسم الموصول الذى يعتمد على ٣٣٪ فى أمثلته على شواهد الثقافة المسيحية .

ج - ثلث أبواب العينة المختارة تعتمد أمثلتها على نسبة أدنى من المتوسط أو نسبة متوسطة فى إفادتها من أمثلة مستمدة من الثقافة المسيحية ، وهذا ما يتضح فى أبواب الفاعل (٥٥٪) وعلامات الاسم (٦٨٪) ثم المبتدأ والخبر حيث تصل النسبة إلى (٧٠٪) .

د - تعتمد بعض الأبواب اعتمادا كاملا على الأمثلة المستمدة من الثقافة المسيحية ، وهذا ما يظهر في بابين فقط من أبواب العينة ، وهما بابا اللفظ المفيد المركب وإعراب الفعل حيث تسجل هذه الأمثلة نسبة ١٠٠٪ .

يمكن توضيح النسبة العددية لورود أمثلة الثقافة المسيحية فى أبواب العينة على النحو التالي :

نوع الورود	الاعتماد الكامل	فوق المتوسط	المتوسط	القليل	الخالي
نسبة الورود	٢	٢	١	٢	٣

وذلك ما يمكن أن يكشف عن أن الاعتماد على أمثلة مستمدة من الثقافة المسيحية ليس ظاهرة مطردة فى أبواب العينة كلها ، مما يشير إلى أن هذه الظاهرة لم تكن - فيما يبدو - عائقا أمام انتشار هذا الكتاب فى البيئات غير

المسيحية ، وهناك أدلة أخرى إحصائية تعضد هذا الاستنتاج ، فإذا حاولنا أن نكتشف النسبة المئوية التي تمثلها أمثلة الثقافة المسيحية في مجموع أبواب العينة المختارة أو موضوعاتها فسنجد أن الجدول التالي يوضحها على النحو التالي :

جدول (٤) : حاصل نسب أمثلة الثقافة المسيحية في موضوعات الكتاب المختارة

م	الموضوع	نسبة الأمثلة المسيحية	* قيمة النسبة
١	اللفظ المفيد المركب	١٠٠٪	١٠
٢	علامات الاسم	٦٨٪	٦,٨
٣	الاسم الموصول	٣٣٪	٣,٣٠
٤	الفاعل	٥٥٪	٥,٥٠
٥	التنازع	صفر	صفر
٦	نائب الفاعل	١١٪	١,١
٧	المبتدأ والخبر	٧٠٪	٧
٨	الاشتغال	صفر	صفر
٩	أفعال المقاربة	صفر	صفر
١٠	إعراب الفعل	١٠٠٪	١٠
	المجموع	-	٤٣,٧٪

إن النتيجة الأساسية التي يكشف عنها الجدول السابق تبين أن ٧ر٤٣٪ من أمثلة الكتاب مستمدة من الثقافة المسيحية ، أي أنها تمثل – من الوجهة النظرية الخالصة – أقل من نصف عدد أمثلة العينة المختارة ، وتترابط هذه النتيجة مع نتيجة الإحصاء الأساسية التي كشف عنها الجدول الأول ، مما

يعضد إمكانية القول بانتشار تلقي هذا الكتاب في البيئات غير المسيحية في لبنان أو الشام عامة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولعل النتيجة السابقة يمكن تعضيدها برصد يميز بين تواتر الأمثلة المستمدة من الترجمة العربية للإنجيل والأمثلة ذات الصبغة المسيحية في الأبواب المختارة من الكتاب ، وقبل رصدها يجب ملاحظة ضرورة إخراج الأبواب الثلاثة التي خلت من الأمثلة المسيحية بنمطيها ، وهي أبواب التنازع ، الاشتغال ، وأفعال المقاربة .

ويكشف الجدول التالي عن النسبتين العددية والمئوية لاستخدام أمثلة الثقافة المسيحية في أبواب العينة المختارة من الكتاب .

جدول (٥) : النسبتان : العددية والمئوية لأمثلة المجموعة (ب) مقارنة بأمثلة المجموعة (ج)

م	الموضوع	عدد أمثلة الثقافة المسيحية	عدد أمثلة المجموعة (ب)	عدد أمثلة المجموعة (ج)	
١	اللفظ المفيد المركب	٥	صفر	٥	صفر
٢	علامات الاسم	٤	٣	١	٪ ٧٥
٣	الاسم الموصول	٢	٢	٢	٪ ١٠٠
٤	الفاعل	١٧	صفر	١٧	صفر
٥	نائب الفاعل	واحد	صفر	واحد	صفر
٦	المبتدأ والخبر	٤٠	١٠	٣٠	٪ ٢٥
٧	إعراب الفعل	٣١	١٦	١٥	٪ ٤٨

ويكشف الجدول السابق عن النتائج التالية :

أ - هناك بعض الأبواب التي احتلت فيها الأمثلة المستمدة من الإنجيل

النسبة الكبرى من مجموع أمثلة هذه الأبواب ، وهذا ما يظهر في بابين فقط ، وهما بابا علامات الاسم والاسم الموصول ، ففي أولهما وصلت النسبة إلى ١٠٠٪ ، بينما وصلت في الثاني إلى ٧٥٪ .

ب – هناك باب واحد فقط سجلت فيه الأمثلة المستمدة من الإنجيل نسبة حضور « متوسطة » وهو باب إعراب الفعل حيث سجلت نسبة ٤٨٪ من أمثلته .

ج – هناك باب واحد سجلت فيه أمثلة الإنجيل نسبة حضور قليلة وهو باب المبتدأ أو الخبر ، إذ سجلت نسبة ٢٥٪ فقط من مجموع أمثلة الثقافة المسيحية فيه .

د – هناك ثلاثة أبواب تخلو تماما من أمثلة مستمدة من الإنجيل وهي أبواب اللفظ المفيد المركب ، والفاعل ، ونائب الفاعل .

ويمكن الخلوص إلى نتيجة أساسية تتولد عن النتائج الثلاث السابقة ، فحواها أن نسبة الأمثلة المستمدة من الإنجيل أقل من مثيلتها ذات الصبغة المسيحية ، وإذا كانت الجداول السابقة قد كشفت عن قلة أمثلة الثقافة المسيحية بنمطيها مقارنة بالأمثلة التراثية ، فإنه يمكن القول إن الأمثلة المستمدة من الإنجيل في هذا الكتاب تعد قليلة في ضوء العينة التي توقفنا عندها ، مقارنة بمجموع الأمثلة المختلفة المترددة في أبواب العينة التي توقفنا عنها .

ولعل تلك النتيجة السابقة تعضد إمكانية القول بصحة الدلالة الأساسية

التى كشفت عنها نتائج الجداول السابقة ، والتى ترى أن أمثلة الثقافة المسيحية التى اعتمدها جرمانوس فرحات فى « بحث المطالب » لم تكن عائقا أمام تلقى كتابه فى البيئات غير المسيحية فى لبنان وفى بلاد الشام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وتحمل النتيجة الأساسية عددا من الدلالات التى تتصل بصنيع المؤلف فى بعض كتاباته الأخرى ، وبهدف من الأهداف الضمنية لكتاب « بحث المطالب » ؛ فلم يكن جرمانوس فرحات – فيما يبدو – ينأى تماما عن الاعتماد على أمثلة قرآنية أو حديثية ؛ ففى الفصل الذى خصصه لعوامل الإعراب فى معجمه « إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » كرر المؤلف – فى مواضع مختلفة – الاعتماد على شواهد من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى [١٢٦] ، مما يشير إلى أنه لم يكن يجد غضاضة فى الاستناد إلى شواهد مستمدة من المصدرين الأساسيين للثقافة العربية الإسلامية . وإذا كان المؤلف قد اعتمد فى نسبة من أمثلة « بحث المطالب » على الاستمداد من الثقافة المسيحية ، فقد كان ذلك يتصل بهدف من أهدافه الضمنية التى يمكن استنباط بعضها مما يتمثل فى تبسيط تعليم النحو العربى أو تيسيره للفئة الأساسية التى كان يتوجه إليها ، من ناحية ، والعمل – من ناحية ثانية – على إدماج الثقافة المسيحية إدماجا عضويا فى الثقافة العربية الحديثة .

---

(١٢٦) انظر : فصل عوامل الإعراب فى « إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » صفحات ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ وفيها شاهدان ، ٦٤٩ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ .

إن غياب الأمثلة القرآنية والحديثية عن « بحث المطالب » يمكن أن تتجلى بعض دلالاته من مقارنة « بحث المطالب » - في هذا الجانب - بعدد من كتب المختصرات النحوية ، ففي « اللمع » لابن جني هناك أربعون شاهدا قرآنيا فقط ، وأما في « المقدمة الجزولية » للجزولي فثمة عشرة شواهد قرآنية فقط (١٢٧) . وأما في « الجمل » للزجاجي فثمة حديثان نبويان فقط ، بينما لم يستشهد الجزولي في « المقدمة الجزولية » إلا بشاهد واحد من كلام عمر بن الخطاب (١٢٨) . ولعل في هذه النماذج ما يسهم في « التخفيف » من « غرابة » عدم اعتماد جرمانوس فرحات على أمثلة قرآنية أو حديثية في « بحث المطالب » .

ولعل تلك الدلالات السابقة يمكن أن تفسر تعدد طبعات « بحث المطالب » طوال القرن التاسع ؛ إذ وصلت إلى ثلاث عشرة طبعة ، مما يعني أن الكتاب كان يتلقى في بيئات عربية مختلفة ، مسيحية كانت أم إسلامية .

وإذا كان كتاب الطهطاوي « التحفة المكتبية » قد طبع مرتين فقط طوال القرن التاسع عشر (١٢٩) فإن قرنه - من هذه الزاوية - بكتاب « بحث المطالب » قد يكشف عن التأثير الكبير الذي مارسه « بحث المطالب » على عدة أجيال من المتعلمين أو التلاميذ العرب .

---

(١٢٧) أنظر : ابن جني : اللمع ، مرجع سابق ، ص ٥٥ من مقدمة المحقق ، الجزولي : المقدمة الجزولية ، مرجع سابق ، ص ٦٨ من مقدمة المحقق .

(١٢٨) انظر : الزجاجي : الجمل ، مرجع سابق ، ص ١٩ من مقدمة المحقق ، المقدمة الجزولية ، ص ٧٠ من مقدمة المحقق .

(١٢٩) انظر : عايدة نصير : حركة نشر الكتب العربية في مصر في القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٦٢ ، حيث يكشف رصدها عن طبع « التحفة المكتبية » مرتين فقط خلال القرن التاسع عشر ، أولاهما سنة ١٨٦٨ وصدرت عن « مطبعة بولاق » ، وثانيتهما سنة ١٨٦٩ وصدرت عن مطبعة المدارس .

(٣) بلــورة النتـــائج :

مثلت الظواهر المختلفة التى حللناها فى الفقرات السابقة دوال تجديد الدرس النحوى عند جرمانوس فرحات فى كتابه « بحث المطالب » وسعى التحليل إلى بلورة هذه الظواهر عبر متابعة تجلياتها الرأسية والأفقية فى « بحث المطالب » ، وأخذ التحليل يجلى هذه الظواهر عن طريق المقارنة بين « بحث المطالب » وكتب المختصرات النحوية والصرفية « التراثية » من ناحية ، وكتاب الطهطاوى « التحفة المكتبية » من ناحية ثانية .

وتمثلت هذه الظواهر فى خمس : أولاها نمط التأليف الذى تشكل من ثلاث علامات رئيسية هى : البنية الكبرى ، والبنية الثانوية أو الصغرى ، ثم تنظيم بعض الأبواب النحوية وفق منطق مبتكر يختلف عن المناطق السائدة فى كتب المختصرات النحوية والصرفية .

وأما الظاهرة الثانية فتمثلت فى سعى جرمانوس فرحات إلى ضبط عدد من مصطلحات الدرس النحوى والتدقيق فى صياغتها ، وإبراز دور الدلالة فى تحديد موضوعاتها بدقة .

وإذا كان الإيجاز فى الاختيار من المادة النحوية التراثية قد شكل الظاهرة الثالثة من ظواهر تجديد الدرس النحوى لدى فرحات ، فإن التحليل قد سعى إلى اكتشاف دلالات الإيجاز بوصفه علامة وآلية معا ، فوصل إلى إدراك جوانب التشابه بين جرمانوس فرحات وشوقى ضيف فى معالجتهما باب التصغير .

وقد تفاعلت ظاهرتا الضبط المصطلحي والإيجاز معًا فولدتا ظاهرة مركبة أسميناها « بنية تنظيم تناول الموضوع النحوى تنظيما وافيا ودالا » ، شكلت ظاهرة من الظواهر الجديدة فى نمط كتب المختصرات النحوية والصرفية ، ومثلت ظاهرة التمثيل للقواعد النحوية والصرفية اعتمادا على الجمع بين الأمثلة التراثية وأمثلة الثقافة المسيحية الظاهرة الأخيرة من ظواهر تجديد الدرس النحوى لدى جرمانوس فرحات .

ولعل تلك الظواهر « السابقة » تتيح لنا إمكانية إثبات الرأى الذى بدأت به هذه الدراسة ، وهو تصور أن كتاب « بحث المطالب » يمثل البداية الحقيقية والمجهولة لتجديد الدرس النحوى فى العصر الحديث .

إن الإنجاز الجذرى الذى قدمه « بحث المطالب » يتمثل فى البنية الكبرى لتأليف الكتاب النحوى ، وهى بنية تقوم على الانتقال من الوحدات الصغرى (الأصوات) إلى الوحدات الوسطى (الكلمات) ، ثم منهما معا إلى الوحدات الكبرى (الجمل) . وهى بنية تختلف جذريا عن البنية السائدة فى المؤلفات النحوية السائدة فى التراث النحوى العربى ، ومن هذا المنظور تعد تلك البنية الكبرى دالا على تجديد جذرى قدمه جرمانوس ، تجديد يستند إلى قطيعة مع التراث ، مع احتفاظه - فى الوقت ذاته - بالعناصر الأساسية الصغرى المكونة لهذه البنية (أعنى مختلف جوانب المادة النحوية من موضوعات ومصطلحات وغيرها) . وقرن محاولة جرمانوس فرحات بمختلف محاولات تجديد النحو التى تلته يكشف عن أن محاولة شوقى ضيف « تجديد

النحو » هي الوحيدة التي استندت إلى هذا النمط الجديد من أنماط البنى التأليفية (على الرغم من أن شوقي ضيف لم يؤسس لهذه البنية تأسيسا نظريا شاملا) .

(٢ / ٣) البنية التأليفية الكبرى في إطار مقارن :

إن إضاءة الإنجاز الجذري الذي قدمه جرمانوس فرحات في « بحث المطالب » ، ذلك الإنجاز المتمثل في البنية التأليفية الكبرى للكتاب النحوي ، تتطلب وضعه في إطارين يتقاطع معهما ، مما يسهم في الكشف عن حجم ذلك الإنجاز وأهميته ودلالته . وهذان الإطاران هما : منهجية تأليف المستشرقين في كتب تعليم الأوروبيين قواعد النحو العربي ، وجهود الشوام ، أو اللبنانيين خاصة ، الذين كانوا يعلمون العربية في الدوائر الاستشراقية في أوروبا في الفترة السابقة على جرمانوس ، ثم في الفترة المعاصرة له ، أي في الفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

إن إضاءة الإطار الأول تشير إلى أن تطور حركة الاستشراق ، منذ القرن السادس عشر ، كشف للقائمين بالتدريس في الدوائر الاستشراقية عن الحاجة إلى وضع مؤلفات في النحو العربي لتعليم دارسي الثقافة العربية والإسلامية قواعد اللغة العربية ، وقد لبت تلك الحاجة عدة كتب ، يأتي في أولها كتاب بوستل "Guilaume Postel" (١٥١٠ - ١٥٨١) « النحو العربي »

"Grammatica Arabica" والذى نشر فى باريس عام ١٥٣٩ ، وهو يركز على تعليم كتابة الحروف العربية ، ويعرف بالاسم والفعل والحرف ، ويتناول أسماء الإشارة وبعض الظروف والمبتدأ . ورغم أن « بوستل » قد أفاد فى صياغته المصطلحات النحوية من بعض المصادر النحوية العربية ، ومن عدد من المخطوطات العربية ، فإنه سعى إلى الإفادة من مصطلحات النحو اللاتينى فى تقديم مصطلحات النحو العربى (١٣٠) .

وقد وصف المستشرق الألمانى « فوك » كتاب « بوستل » بالضعف وكثرة الأخطاء المطبعية . (١٣١).

ولعل أوجه القصور فى كتاب « بوستل » هى التى جعلت من كتاب المستشرق الهولندى إربنيوس (١٣٢) "Thomas Erppenius (١٥٨٤ - ١٦٢٤) المنشور باللاتينية عام ١٦١٣ تحت عنوان « النحو العربى فى خمسة

---

(١٣٠) عن كتاب بوستل ، انظر :

- Bobizin , Hartmut : Gullaume Postel (1S1O - 1S81) und die Terminologie der arabischen Nationalgrammatik, Studies in The History of arabic Grammar II, ed by kees versteegh and Michael G. Carter, Amsterdom, 1990, PP.S 7 - 72 .

يوهان فك : تاريخ حركة الاستشراق : الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا حتى بداية القرن العشرين ، تعريب عمر لطفى العالم ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص - ص ٤٩ - ٥٠ ، ونشير إلى أن عنوان كتاب فوك بالألمانية هو : Die arabischen Studien in Europa

وهو عنوان يختلف عن العنوان الذى وضعه المترجم .

(١٣١) انظر : يوهان فوك : المرجع السابق ، ص - ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٣٢) حول التعريف بجهود إربنيوس يمكن مراجعة الجزء الثانى من كتاب نجيب العقيقى : المستشرقون ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ ، ص - ص ٦٥٣ - ٦٥٤ .

أبـواب ، "Grammatica Arabica" أول مؤلف أوروبى متكامل يقدم ، من منظور أوروبى ، قواعد العربية لتلبية حاجة طلاب الدراسات العربية . وتقوم بنية هذا الكتاب على منطق متدرج فى تناول المادة اللغوية ؛ إذ يبدأ الكتاب بتناول الإملاء ، ودراسة الخط وأنواعه والنظام العددى ، ودراسة عدد من الموضوعات المرتبطة بالأصوات العربية كالنطق وظاهرة الإدغام وقواعد الحركات القصيرة ، ويضيف إليها عرضا لأحكام تلاوة القرآن ، ثم ينتقل إلى دراسة عدد من الموضوعات التى تقع فى إطار علم الصرف ، إذ يقدم بالتفصيل مسائل بناء الفعل ، والفعل المهموز ، والفعل الناقص ، وصيغ الأسماء ، وجمع التكسير ، ويقدم أمثلة لها جميعا .

ويتلو ذلك بدراسة الأدوات وبناء الجملة والتركيب . ولكن المشكل أن هذه الجوانب التى تدخل جميعها فى إطار النحو - بمعناه الضيق فى التراث العربى - لم تنل إلا عناية قليلة من « إربنيوس » إذ لم يخصص لها سوى صفحات قليلة جدا من كتابه (١٣٣) .

وقد ظل كتاب « إربنيوس » المرجع الأساسى لتعليم قواعد العربية فى مختلف الدول الأوروبية لمدة قرنين من الزمان ، ولم يدخل عليه المستشرقون أى تعديلات جوهرية سوى إضافة بعض النصوص للمطالعة (١٣٤) .

وإذا كان عدم اهتمام « إربنيوس » بإعطاء بنية الجمل والتراكيب العربية ما تحتاجه من عناية واهتمام يشكل الجانب السلبى الأساسى فى كتابه

---

(١٣٣) حول كتاب إربنيوس انظر :
يوهان فوك ، المرجع السابق ، ص - ص ٦٩ - ٧٠ .
عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص - ص ٩ - ١٢ .

(١٣٤) انظر : يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ، مرجع سابق ، ص - ٦٩ - ٧٠ .

– فإن كتاب « النحو العربى » « Grammaire Arabe » أو « التحفة السنية فى علم العربية » والذى أصدره المستشرق الفرنسى « سلفستر دى ساسى » (١٧٥٨ – ١٨٣٨) عام ١٨١٠ يمثل المؤلف الجديد الذى حل محل كتاب إربنيوس .

ويتكون كتاب دى ساسى من جزئين ، وهو يقوم على البدء بدراسة عناصر الكلام العربى والكتابة العربية ؛ إذ بدأ بدراسة الأبجدية العربية ، وتقسيم الحروف إلى صوامت وسواكن ، ثم درس بعض الظواهر الصوتية كالتشديد والهمزة والمدة ، ثم انتقل إلى دراسة مكونات الكلام فدرس الأفعال والضمائر ، وتصريفات الأفعال ، وأزمنة الأفعال ، وتصريف الأسماء ، كما درس كثيرا من الحروف (مثل حروف الاستفهام ، وحروف التنبيه ، وحروف التعليل ، وحروف التحقيق وغيرها) .

وقد انتقل ، بعد ذلك ، إلى دراسة تركيب الجمل ، فقدم وصفًا مستفيضًا لأنماط بناء الجمل العربية ، مما يمثل وصفا دقيقا لموضوعات النحو العربى .

ولعل أبرز ما يتسم به كتاب « دى ساسى » هو تقديمه – فى إطار تناوله للموضوعات السابقة – عدداً كبيراً من الأمثلة التطبيقية والتوضيحية من آيات القرآن ومن مصادر الأدب العربى [١٣٥] .

إن كتابى « إربنيوس » و « دى ساسى » قد ثبتا بنية تأليفية فى تنظيم قواعد العربية لطلاب الاستشراق ، وتقوم هذه البنية على البدء بالدرس

(١٣٥) انظر :

De Sacy, Silvestre : Grammaire Arabe (التحفة السنية فى علم العربية) Paris, 1829 .

الصوتى يتلوه الدرس الصرفي للصيغ والمشتقات العربية ثم دراسة تراكيب الجمل وأبنيتها . وقد تثبتت هذه البنية التأليفية فى كتب تعليم العربية في اللغات الأوروبية المختلفة ، وهى تتجلى - بوضوح - فى كتب المستشرقين الإنجليز والألمان في القرن التاسع عشر وما بعده (١٣٦) دون أن ينفي هذا أن بعض هؤلاء المستشرقين كانوا يعدلون أحيانا فى بعض تفاصيل هذه البنية أو جزئياتها .

وفي موضع تال سيكشف وضع كتاب « بحث المطالب » في إطار كتب قواعد العربية عند المستشرقين عن بعض جوانب أهميته .

وأما الإطار الثانى الذى يجب أن يوضع فيه « بحث المطالب » فهو مؤلفات اللبنانيين أو الشاميين السابقين عليه ، ممن كانوا يعلمون العربية فى أوروبا .

وتتطلب إضاءة ذلك الإطار وقفة تاريخية قصيرة ؛ ففي بداية الربع الأخير من القرن السادس عشر بدأ بعض الموارنة من لبنان وسوريا يدرسون فى جامعات روما ، وفي عام ١٥٨٤ أنشأ البابا غوريغوريس الثالث عشر مدرسة في روما عرفت بالمدرسة المارونية ، لتعليم رجال الدين من الموارنة اللبنانيين ، فأخذ هؤلاء فى الالتحاق بهذه المدرسة حيث كانوا يتعلمون علوم

---

(١٣٦) انظر على سبيل المثال الكتابين التاليين :

- Wright, W : A Grammar of Arabic Lanuage, cambridge, 1964 .
- Nöldeke , Theodor : Zur Grammatik des classischen Arabisch , Darmstadt, 1963 .

وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٨٩٧ .
ومن نماذج كتب القرن العشرين يمكن مراجعة كتاب بلاشير الفرنسى الذى أشرنا إليه فى هامش سابق .

اللاهوت والمنطق ، ويدرسون اللغات السامية واليونانية واللاتينية ، ويلمون بالإيطالية والفرنسية ، ودُعِّمت هذه المدرسة بإنشاء المطبعة الشرقية فى روما عام ١٦٥٣ .

وكان يتاح لطلاب هذه المدرسة الدراسة بها لمدة قد تصل إلى أكثر من عشر سنوات ، وبعد انتهاء الدارس من دراسته كان أمامه طريقان : إما العودة إلى لبنان للعمل فى مجال الوعظ والتعليم عن طريق السعى إلى تأسيس مدارس فى مناطق الموارنة لتعليمهم علوم اللاهوت والأدب واللغة والتاريخ وغيرها (١٣٧) ، أو البقاء فى روما للعمل فى الدوائر الكنسية ، كالاشتغال بالترجمة من العربية والسريانية إلى اللاتينية ، والإسهام فى تنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد القديم التى طبعت باللغتين السريانية والعربية ، وفهرسة المخطوطات الشرقية ودراستها .

وقد مَثَّل تعليم دارسى الاستشراق من الأوربيين اللغتين العربية والسريانية عملا من أبرز الأعمال التى قام بها خريجو المدرسة المارونية فى روما . وقدم عدد منهم مؤلفات تقع فى إطار تعليم قواعد اللغة العربية ، أو النحو العربى ، ومن هؤلاء :

---

(١٣٧) انظر : نقولا زيادة ، أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص – ص ١٣٢ – ١٣٦ .

وانظر أيضا : نجيب العقيقى : المستشرقون ، الجزء الثالث ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٣١٧ .

بطرس المطوشي (١٥٥٩ - ١٦٢٥) وله كتاب « اللغة العربية » الذي صدر في روما عام ١٦٢٤ ، ويوحنا الحصروني (ت ١٦٢٦) الذي قدم مع جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ - ١٦٤٨) كتابا عنوانه « قواعد اللغة العربية » يتكون من خمسة أجزاء ، وقد صدر في باريس عام ١٦١٦ ، ونصر الله شلق (ت ١٦٣٥) الذي صنف كتابا عنوانه « المدخل إلى اللغة العربية » صدر في روما عام ١٦٢٧ ، ثم سركيس الرزي (ت ١٦٣٨) الذي قدم كتاب « قواعد اللغتين العربية واللاتينية » [١٣٨] .

ورغم عدم وجود معلومات مفصلة عن طبيعة مؤلفات هؤلاء اللبنانيين في قواعد العربية أو النحو العربي ، فمن الراجح أنهم قد انتهجوا فيها نفس النهج الذي انتهجه إريبيوس في كتابه « النحو العربي » .

إن وضع كتاب جرمانوس فرحات « بحث المطالب » في سياق يتقاطع فيه مع الإطارين السابقين يستند إلى عدد من الشواهد الوثيقة ، وهي : ما ثبت في سيرة جرمانوس من أنه قد زار إيطاليا وأسبانيا وصقلية لمدة ليست

---

(١٣٨) انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون ، الجزء الثالث ، مرجع سابق ، ص - ص ٣١٨ - ٣٢٤ ، حيث يقدم تراجم موجزة لهؤلاء الدارسين ، ويشير إلى مؤلفات كل منهم .
وانظر أيضا : عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ، مرجع سابق ، ص - ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، حيث عرض ترجمة لجبرائيل الصهيوني ، وأشار إلى كتابه عن « النحو العربي » . ولعل الجدير بالذكر أن بدوى قد ذكر في صفحة ٣٨٤ أن هذا الكتاب قد اقتصر على تعليم مبادئ الخط العربي فقط .

قصيرة (١٣٩) ، كما أنه كان يجيد اللاتينية والإيطالية مما يسر له الإطلاع على كتابات المستشرقين السابقين عليه والمعاصرين له في قواعد العربية ، ثم إن البنية التأليفية الجديدة التي قدمها في « بحث المطالب » تكشف عن تأثره بكتاب « إربنيوس » خاصة . ولكن ذلك التأثر لا ينفي أصالة « البنية التأليفية الكبرى » التي قدمها جرمانوس في « بحث المطالب » ؛ فمن الواضح أن المقارنة بين كتابي « جرمانوس » و « إربنيوس » في هذه البنية تكشف عن جوانب الاختلاف بينهما ؛ فإذا كانا قد أسسا هذه البنية على الدراسة الصوتية ، فمن الواضح أن الدرس الصوتي عند جرمانوس كان مكثفا ومركزا على جوانب محددة كمخارج الأصوات ، والحركات القصيرة ، والعلاقة بين الأصوات والحركات القصيرة عند الكتابة ، وذلك على العكس من إربنيوس الذي أفاض في هذه الجوانب وغيرها من الجوانب الصوتية ، وأضاف إليها أحكام تلاوة القرآن .

وإذا كان إربنيوس قد قدم معظم موضوعات الصرف العربي ، فإن جرمانوس قد قدم معالجة وافية لمسائل الصرف العربي وفق منظور منضبط .

وإذا كان إربنيوس لم يعط دراسة الأدوات وبناء الجمل إلا حيزا ضئيلا

---

(١٣٩) ذكر بروكلمان أن جرمانوس [زار روما وأسبانيا وصقلية ومالطة سنة ١٧١١] ، انظر : تاريخ الأدب العربي ، القسم الثامن ، مرجع سابق ، ص ٣٦ . بينما ذكر جورجي زيدان أن جرمانوس [سافر إلى أوروبا فزار إيطاليا وأسبانيا وصقلية وغيرها ، وبحث عن بعض الكتب النادرة ، ورحل إلى بلاد أخرى وهو يزداد بالرحلة اختبارا ومعرفة وشهرة ، فانتخب سنة ١٧٢٥ أسقفا على حلب] ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع ، مرجع سابق ، ص ٩ . وفحوى عبارات زيدان يفهم منها أن جرمانوس فرحات قد أقام فترة طويلة مرتحلا في عدد من الدول الأوروبية .

جدا من مؤلفه ، مما شكل جانب قصور فيه - فإن جرمانوس قد قدم - كما بيّن التحليل في فقرات سابقة - دراسة وافية لقواعد النحو العربي وفق منطق مبتكر وتنظيم جديد لعدد كبير من موضوعات النحو العربي .

ولعل هذه المقارنة الموجزة تؤكد أصالة البنية التأليفية الكبرى التي قدمها جرمانوس فرحات في « بحث المطالب » .

إن وضع كتاب « بحث المطالب » موضع مقارنة مع مؤلفات المستشرقين في النحو العربي أو قواعد العربية في القرن السابع عشر (وما بعده أيضا) يكشف عن أن العلاقة بينهما ليست مجرد تشابه في البنية التأليفية الكبرى وفي الاهتمام بمسائل بنية الجملة العربية ، بل إن « بحث المطالب » هو واحد من الكتب العربية النحوية الحديثة التي تُلُقيت جيدا في الدوائر الاستشراقية ، وأتيح له التأثير في كتابات بعض المستشرقين في النحو العربي . ويدل على ذلك ما ذكره « جراف » في كتابه « تاريخ الأدب المسيحي العربي » من أن كتاب « بحث المطالب » قد عرف منذ بداية القرن الثامن عشر في عدد من الجامعات الأوروبية ، ومنها ميونيخ التي عرفته عام ١٧٠٧ ، وليبزج التي عرفته عام ١٧٩٣ ، وبرلين التي عرفته عام ١٨٠٠ ، ثم مانشستر التي عرفته عام ١٨٣٠ [(١٤٠)] . مما يؤكد أن الدوائر الاستشراقية في هذه الجامعات وغيرها من الجامعات الأوروبية قد أفادت منه في تأليف كتب تعليم قواعد العربية . ولعل مما يعضد هذا ما ذكره يوسف الدبس صاحب « الجامع المفصل

(١٤٠) انظر : Craf, Georg : Geschichte der chrislichen Arabischen Literatur, P 418 .

فى تاريخ الموارنة المؤصل » من أن كثيرا من المؤلفات التى كتبها العلماء الموارنة فى القرن الثامن عشر قد نقلت إلى أوروبا وأفاد منها الأوروبيون [١٤١] .

ويؤكد ذلك التأثير ما أشار إليه المستشرق الإنجليزى « ويليام رايت » W. Wright ، فى مقدمة كتابه « نحو اللغة العربية » A Grammar of Arabic Language الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٨٥٢ ، أن كتاب « مصباح الطالب فى بحث المطالب » هو أهم مصادره الحديثة فى النحو العربى [١٤٢] .

وقد أشرنا من قبل إلى أن كتاب « مصباح الطالب » هو الطبعة الثانية من «بحث المطالب» ، وفيه حذف بطرس البستانى الأمثلة التطبيقية التى وضعها أحمد فارس الشدياق فى نهاية الطبعة الأولى من « بحث المطالب » .

تتيح لنا المقارنة بين « بحث المطالب » وكتب المستشرقين فى تعليم النحو العربى أن نتوقف – بإيجاز – مرة أخرى أمام « بحث المطالب » مقارنا بكتاب « التحفة المكتبية » للطهطاوى .

إذا كان جرمانوس قد أفاد البنية التأليفية الكبرى فى « بحث المطالب » من كتب المستشرقين ، وأضاف إليها إضافات أصيلة جعلت كتابه مؤثرا فى كتابات بعض المستشرقين الذين تلوه – فإن بنية التأليف فى « التحفة المكتبية » بنية تقليدية ، أى أنها تقوم على تكرار نمط تأليفى متكرر فى كثير من كتب

---

(١٤١) انظر : يوسف الدبس : الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، المطبعة العمومية الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٥ ، ص ٤٦٠ .

(١٤٢) انظر : Wright : Ibid .

التراث النحوى العربى مثل « شذور الذهب » لابن هشام ، وإن أضافت إليه جانبا تجديديا واحدا يتمثل فى وضع القواعد النحوية فى إطار جداول .

ومن الواضح أن الطهطاوى كان حريصا على أن يقدم قواعد النحو العربى فى إطار تلك البنية التقليدية ، فرغم تتلمذه على « دى ساسى » وصلته بمؤلفاته ووصفه لكتابه « التحفة السنية فى علم العربية » بأن « دى ساسى » (ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا) (١٤٣) - رغم هذا كله لم يفد الطهطاوى من بنية التأليف فى كتاب « دى ساسى » ، على حين أن جرمانوس قد استطاع قبله - بأكثر من قرن ونصف القرن - أن يفيد من البنيـة التأليفية الكبرى فى كتب المستشرقين فى قواعد النحو العربى ، وأن يضيف إليها إضافات جذرية ، جعلت من كتابه « بحث المطالب » البداية الحقيقية لتجديد الدرس النحوى فى العصر الحديث .

(٣ / ٣) فرضيات جديدة :

تستطيع هذه الدراسة أن تطرح الفرضيتين التاليتين للدراسة :

أ - يمكن لهذه الدراسة أن تلفت الانتباه إلى ضرورة دراسة ما أسمته « نمط التأليف » أو « البنية الكبرى » فى كتب المختصرات النحوية والصرفية فى التراث العربى (قياسا على ما كشف عنه تحليل « بحث المطالب ») من ناحية ، وفى مختلف كتابات مرحلة الإحياء فى القرنين الثامن والتاسع

(١٤٣) الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، دراسة وتعليق محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢١ .

عشر في علوم النحو واللغة والبلاغة والنقد من ناحية ثانية ، لاكتشاف الآليات والطرائق التي سعى بها أصحاب هذه الكتب أو مؤلفوها إلى تقديم مؤلفات التراث العربي والتعديل فيها استجابة للمتطلبات الجديدة التي فرضها الواقع الحديث .

ب - وضعنا في عنوان هذه الدراسة عبارتي « العصر الحديث » و « القرن الثامن عشر » مما يشير إلى تصور أن يكون القرن الثامن عشر هو بداية العصر الحديث ، أو البداية الأولى للعصر الحديث في بعض بيئات الثقافة العربية كبيئة الشام ، وهذا افتراض يلتقي مع بعض الدراسات التي قدمها بعض دارسي التاريخ العربي الحديث [١٤٤] .

ولكن هذين الافتراضين اللذين نطرحهما يتطلبان دراسات موسعة لكتابات أدباء القرن الثامن عشر في مجالات اللغة والأدب والنقد والبلاغة .

---

(١٤٤) انظر : على سبيل المثال : بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية (مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠) ترجمة محروس سليمان ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣ .

الملحق : جدول مقارنة الشواهد التراثية وشواهد الثقافة المسيحية

م	الموضوع	عدد الشواهد	الشواهد التراثية (أ)	الشواهد المسيحية المنسوبة (ب)	الشواهد ذات الصبغة المسيحية (ج)	نسبة (ب) إلى (ج)	نسبة (أ) إلى (ب)+(ج)
١	اللفظ المفيد المركب ص-ص ١٠٧-١٠٨	٥	صفر	صفر	• قام بطرس (٢) • بطرس قائم • تلميذ المسيح	صفر : ٥	صفر : ٥
٢	علامات الاسم ص١٠٨	٧	• جاء زيد • مررت بزيد • رأيت زيدا	• وحينئذ تنظرون علامات ابن الإنسان • فعجب كل منكم	• قام بطرس	٣ : ١	٣ : ٤
٣	الاسم الموصول ص١١٤	٦	• يعجبني أيهم قائم • جاء الضارب وجهه • جاء المضروب وجهه • جاء الحسن وجهه	• من يطلب يجد • أعطوا ما لقيصر لقيصر	ـــــ	٢ : صفر	٦ : ٢
٤	الفاعل ص-ص ١٣٢-١٣٥	٣٢	• قام الرجلان • قام الرجلان • طلع الشمس • طلعت الشمس	ـــــ	• قام بطرس (٤) • قالت مريم • ليس مريم مائتة • ليست مريم مائتة	صفر : ١٢	١٥ : ١٧

			• قام الرجال • قامت الرجال • جاء المؤمنون • النار أحرقت • يعجبني أن تقوم • لطم السيد العبد • زيدا ضربت • ضربت زيدا • أيا تضرب أضرب • من رأيت • زيدا ضربته		• قالت مريم • مريم قالت • هيهات بطرس • عجبت من موت يسوع • يسوع طاهرة أمه وحسن فعلها • أحيا المسيح العازر • ابتلى أيوب ربه • أشقاني يسوع • بشرلوقا البشيرمتى الرسول • من تطلب (يسوع) = أطلب يسوع		
٥	التنازع من ١٢٥	١٢	• ضربت زيدا (٣) • أكرمني زيد • ضربني زيد • ضرب الرجلين • ضربت الرجلين	—	—		١٢ : صفر

			• ضربت القائلين • مررت بزيد • مر بي زيد				
٦	نائب الفاعل ص ١٣٦	٩	• ضرب عمر زيدا • ما ضربت إلا أنت • ضرب زيد • أعطى زيد درهما • أري زيد عمرا فاضلا • سير ميل • سير السير الشديد • مر بزيد		• صيم الصوم الكبير	صفر : ١	٩ : ١
٧	المبتدأ والخبر ص - ص ١٣٧ - ١٤١		• ضارب زيدا حاضر • ما قائم الرجلان • ما قائم الرجال • هل قائم الرجلان • هل قائم الرجال • ما قائمان الرجلان • ما قائمون الرجال • هل قائمان الرجلان	• بك جنون • هل شيطان يخرج شيطانا • ما أحد عارف بالأب إلا الابن • برص كثيرون في عهد اليشع النبي	• يسوع صائم • بطرس قائم • أندراوس أخو بطرس • يسوع بطرس حافظه هو • مريم ولدت يسوع • يسوع عندك	١٠ : ٢٠	١٧ : ٤٠

• هل قائمون الرجال	• سلام لكم	• يسوع ذلك المخلص
• من أبوك	• بطرس حماته محمومة	• بطرس نعم الرسول
• من يكرمني أكرمه	• السلام عليك يا مريم	• ما قائم بطرس
• ما أحسن زيدا	• كل من يأتي إلي فلا أخرجه	• ليس قائم بولس
• عندك رجل	• كم عندكم من الخبـــز،	• هل قائم بولس
• في الدار امرأة	فقالوا سبعة	• هل قائم بطرس
• في الدار صاحبها	• الله هو الكلمة	• ما بطرس كاذب
• كل إنسان وعمله		• لبطرس رسول
• ضربني زيدا قائما		• بطرس رسول
		• رسول بطرس
		• عندك بطرس
		• في الدار بولس
		• بطرس قائم
		• بطرس يقوم
		• ما بطرس إلا رسول
		• إنما بطرس رئيس الرؤساء
		• أين بطرس
		• كيف بولس

				• ما في الدار إلا بطرس ، • عندك بطرس قلم • أين العازر مدفون • لولا يسوع ما خلصنا • هل بطرس قلم			
٨	الاشتغال ص - ص ١٤٢ -١٤٣	١٢	• زيد ضربته • زيد ضربت أخاه • زيدا ضربت • خرجت فإذا زيد يضربه غلامه • خرجت فإذا زيد يضرب غلامه • خرجت فإذا زيد يضرب غلامه عمر • إن زيدا تكرمه تكرمك • هل زيدا رأيته • هلا زيدا ضربته • زيدا أخاه • زيدا وعمرا أكرمته • زيدا لقيته وعمرا أكرمته .	———	———	———	١٢ ، صفر

٩	أفعال المقاربة ص - ص ١٣٩ - ١٤٠	١٢	• كاد زيد يموت • كاد زيد يذهب أبوه • كاد زيد يذهب • كاد زيد يضرب • شرع زيد ينشد • رأيت زيدا ينشئ كلاما وشرع في عمله • عسى أن يقوم زيد • أوشك أن يموت زيد • اخلولق أن يتكلم زيد • زيد عسى أن يقوم (٢) • الرجلان عسيا أن يقوما • الرجال عسوا أن يقوموا • عسى أن يقوما • عسى أن يقوموا	ـــــ	ـــــ	ـــــ	١٢ : صفر

١٠	إعراب الفعل ص - ص ٢٠٤ - ٢١٣	٢١		• أوشك أن يغرق • لن تحل أن تكون لك امرأة • أتيتك بابني كي تشفيه • لكيما يغفر لكم أبوكم • كيلا يهلك من يؤمن به • حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب • ما جئت لأحل الشريعة بل لأكملها • من يطلب الخلافات أحب العصيان • من عاشر المتكبر يلبس الكبرياء • من لمس القار لصق به • إن سألتكم فلا تردون • من لا يؤمن يدن • من يفتخر فليفتخر بالرب • إن سقط عدوك فلا تشمت به • من يتكل على قلبه فجاهل • نعما نعما قد رأت أعيننا	• صرت مسيحيا إذن تدخل الجنة • جئت لكي أترهب • لا تخالف أمر المسيح فتهلك • ليتني مسيحي فأتوب • نعم الرجل بطرس • نعم رسول المسيح بطرس • نعم رجلا بطرس • نعم الرجل بطرس • بئس التلميذ يوضاس • حبذا البطرسان • حبذا البطرسون • حبذا رجلا بطرس • حبذا بطرس رجلا • حبذا بطرس راكبا	١٦ ، ١٥	صفر ، ٢١

المصـــادر والمراجـــع

أولا : مؤلفات جرمانوس فرحات

■■ جرمانوس فرحات : بحث المطالب في علم العربية ، مالطة ١٨٣٦ .

■■ جرمانوس فرحات : بحث المطالب في علم العربية ، مع حواش عليه لمصححه المعلم سعيد الخوري الشرتوني اللبناني ، الطبعة الرابعة ، مطبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٥ .

■■ جرمانوس فرحات : إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب بتصحيح رشيد الدحداح ، مطبعة باراس وسافورنين ، مرسيلية ١٨٤٩ .

■■ جرمانوس فرحات : كتاب الأجوبة الجلية في الأصول النحوية ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الآباء الفرنسيسكانيين ، القدس ، ١٨٨٦ .

■■ جرمانوس فرحات : ديوان جرمانوس فرحات ، الطبعة الثانية ، تعليق وتصحيح سعيد الخوري الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٤ .

ثانيا : المصادر التراثية

■■ الأردبيلي (جمال الدين محمد عبد الغني) : شرح الأنموذج في النحو للعلامة الزمخشري ، تحقيق وتعليق حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

■■ الجرجاني « أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن » : كتابه المفتاح في التصريف ، تحقيق وتقديم علي توفيق الحمد ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٧ .

■■ الجرجاني : « العمد » كتاب في التصريف ، تحقيق وتقديم وتعليق ، البدراوي زهران ، دار المعارف ١٩٨٨ .

■■ الجرجاني : كتاب الجمل في النحو ، شرح وتحقيق ودراسة يسري

عبد الغني ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠ .

■■ الجزولي (أبو موسى عيسى بن عبد العزيز) : المقدمة الجزولية في النحو ، تحقيق وشرح شعبان عبد الوهاب ، الطبعة الأولى ، أم القرى ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

■■ ابن جني (أبو الفتح عثمان بن يحيى) : اللمع في العربية ، تحقيق حسين محمد محمد شرف ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

■■ ابن جني : المنصف شرح كتاب التصريف للمازني ، الجزء الأول ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٤ .

■■ أبو حيان الأندلسي : ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق وشرح ودراسة رجب عثمان محمد ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٨ .

■■ الرملي (أحمد بن علي الرملي) : شرح الأجرومية ، تحقيق ودراسة علي موسى الشوملي ، دار أمية للنشر والتوزيع ، الرياض ، دون تاريخ .

■■ الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق) : كتاب الجمل في النحو ، تحقيق وتقديم علي توفيق الحمد ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دار الأمل ، الأردن ، ١٩٨٤ .

■■ الشلوبيني (أبو علي عمر بن محمد بن عمر الإشبيلي) : التوطئة ، دراسة وتحقيق يوسف أحمد المطوع ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨١ .

■■ الميداني (أحمد بن محمد) : نزهة الطرف في علم الصرف ، تحقيق وتعليق السيد محمد عبد المقصود درويش ، الطبعة الأولى ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨٢ .

■■ ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري) : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة العاشرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

■■ ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصارى) : الإعراب عن قواعد الإعراب ، تحقيق وتقديم على فودة نيل ، عمادة شئون المكتبات ، الرياض ، ١٩٨١ .

■■ ابن هشام : نزهة الطرف فى علم الصرف ، تحقيق ودراسة أحمد عبد المجيد هريدى ، مكتبة الزهراء ١٩٩٠ .

■■ ابن هشام : مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق حنا الفاخورى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢ .

ثالثا : المراجع الحديثة

■■ ادورد فنديك : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية فى المطابع الشرقية والغربية ، صححه وزاد عليه بعض الكلام السيد محمد على البيلاوى ، طبع بمطبعة التأليف (الهلال) بالفجالة ١٨٩٦ .

■■ أمين البوت الريحانى : مدار الكلمة (دراسات نقدية) ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

■■ أنيس فريحة : نحو عربية ميسرة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٥

■■ أنيس فريحة : نظريات فى اللغة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٧٣ .

■■ أنيس فريحة : فى اللغة العربية وبعض مشكلاتها ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٩ .

■■ البدراوى زهران : رفاعة الطهطاوى وتيسير نحو العربية فى كتابه التحفة المكتبية ، ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٨ .

■■ بطرس حداد وجاك اسحاق : المخطوطات السريانية والعربية فى خزانة الرهبانية الكلدانية فى بغداد ، الجزء الثاني : المخطوطات العربية ، مطبعة المجمع العلمي العراقى ١٩٨٨ .

■■ جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . د . الهلال ، بدون تاريخ
■■ حسن عون : تطور الدرس النحوى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠
■■ حسين محمد محمد شرف : مقدمة تحقيقه لكتاب اللمع لابن جنى (بيانات النشر مذكورة في المصادر) .
■■ حسين نصار : المعجم العربى : نشأته وتطوره ، الطبعة الرابعة ، دار مصر للطباعة ، ١٩٨٨ .
■■ رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، دراسة وتعليق محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
■■ شوقى ضيف : تجديد النحو ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .
■■ شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده ، دار المعارف ١٩٨٦
■■ على توفيق الحمد : مقدمة تحقيقه لكتاب « الجمل فى النحو » للزجاجى (بيانات النشر مذكورة مع المصادر) .
■■ كمال محمد بشر : دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧١
■■ كوركيس عواد : الأصول العربية للدراسات السريانية ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٨٩ .
■■ مارون عبود : صقر لبنان (بحث فى النهضة الأدبية الحديثة ورجلها الأول أحمد فارس الشدياق) - منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٠ .
■■ مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ .
■■ محمد على الزركان : الجوانب اللغوية عند أحمد فارس الشدياق ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، سوريا ، ١٩٨٨ .

■■ محمد عيد : النحو المصفى ، مكتبة الشباب ، بدون تاريخ .
■■ محمد عيد : الصرف الواضح لبنية الكلمة العربية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الشباب ١٩٩٣
■■ محمد الهادى المطوى : أحمد فارس الشدياق : حياته وآثاره وآراؤه فى النهضة العربية الحديثة ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٩ .
■■ محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى مع النص الكامل لكتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .
■■ محمود فهمى حجازى : علم اللغة العربية مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، دون تاريخ .
■■ محمود فهمى حجازى : الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، دار غريب للطبع والنشر والتوزيع ، دون تاريخ .
■■ نجيب العقيقى : المستشرقون ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٦٥ ، والجزء الثالث ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٨١ .
■■ نقولا زيادة : أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٢ .
■■ يوسف الدبس : الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، المطبعة العمومية الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٥ .
■■ يوسف داود الموصلى : التمرنة فى الأصول النحوية ، جزآن ، طبع دير الآباء الدومنيكيين ، الموصل ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ .

رابعا : مقالات الدوريات

■■ جرجس منش المارونى الحلبى : مطالب فى بحث المطالب ، المشرق ، السنة الثالثة ، العدد الثالث والعشرون ، يناير ١٩٠٠ .

■■ جرجس منش المارونى الحلبى : المستطرفات المستظرفات فى حياة السيد جرمانوس فرحات ، المشرق ، السنة السابعة ، العدد الثانى ، ١٥ كانون الثانى ١٩٠٤ .

■■ جرجس منش المارونى الحلبى : تركة السيد جرمانوس فرحات ، المشرق ، السنة السابعة ، العدد الثامن ، أبريل ١٩٠٤ .

خامسا : دوائر المعارف والقواميس المتخصصة

■■ بطرس البستانى : دائرة المعارف ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٨٧٦

■■ خير الدين الزركلى : الأعلام (قاموس لأشهر تراجم الرجال والنساء من العرب والمستشرقين والمستعربين) ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٠ .

■■ عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤

■■ يوسف إلياس سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، دون تاريخ .

سادسا : المراجع المترجمة

■■ بروكلمان ، كارل : تاريخ الأدب العربى ، القسم الثامن : العصر العثمانى ، ترجمة محمود فهمى حجازى وعمر صابر عبد الجليل ، إشراف محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ .

■■ بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية (مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠) ترجمة محروس سليمان ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣ .

■■ يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق : الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا حتى بداية القرن العشرين ، تعريب عمر لطفى العالم ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٩٦ .

سابعا : المراجع الأجنبية

- Bobizin, Hartmut : Guilaume Postel (1S1O - 1S 81) und die Terminologie des arabischen Nationalgrammatik, Studies in The History of arabic Grammar, ed by kees versteegh and michael G. carter, Amsterdam 1990 .
- Blache're et Gaudefory : Grammaire de L'Arab Classique, Paris 1952 .
- De Sacy, Silvestre : Grammaire Arabe, Paris, 1829 .
- Graf, George : Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, Citte de Vaticano, Biblioteca Apostolica Vaticana 1977 .
- Hartmann, Martin : Philologie, Deutsche Literatur Zeitung, N. 5, 1896 .
- Starky, Pual and Meisami, Julie Scott (ed) : Encyclopedia of Arabic Literature, Routledge, London and New York 1998 .
- Wright : A grammar of the Arabic Language, University Press, Combridge, 1964 .

فهرس الكتاب